جامعة مولود معمري

تيزي وزو



خصائص لغة ابن قيّم الجوزيّة من خلال

(مفتــــاح دار السّعــــــــــادة)

نصيرة زيد المال

منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر

2011

الإيداع القانوني: 2463 – 2011
ردمك: 2 – 1 – 9035 – 9931 – 978

كلمة شكر

عرفانا منّي بالجميل، فإنّي أشكر الله عزّ وجلّ أوّلا وآخرا على ما منّ عليّ من توفيق وسداد.

ثمّ أتوجّه بالشّــكر الجزيل والتقدير الجميل

إلى أستاذي الكريم الدكتور صالح بلعيد على قبوله الإشراف على هذه الرسالة وعلى ما قدّمه لي من جهد مشكور

ومن نصائح وإرشادات

والتي على ضوئها سرت في إكمال هذا العمل المتواضع، وله جزيل الشكر.

الإهداء

إلــى والديّ الكريمين

إلــى إخوتــي وأخواتــي

إلــى كلّ من أحبّهم قلبــي

إلــى كلّ زميلاتي وزملائــي

وإلــى كلّ من مدّني العون والإرشــاد

والتّشجيع من قــريب أو من بعيــد

أهــدي هــذا العمل المتواضع.

مقدمة: لقد كان العالم كله قبل الإسلام غارقا في الجهل، لا يعرف مبدع هذا الكون، فأنكر الناس الخالق، وترتب على هذا أن عمت الفوضى وكثر الفساد، ولم يكن العرب أسعد حظا من غيرهم قبل الإسلام، بل كانوا أكثر الأمم تمزقا وتفرقـا وشركا بالله، وشاعت فيهم العادات الرذيلة، وكان العالم العربي يمـوج بالفوضـى والاضطراب كما كان غيرهم، ولقد حاول بعض المفكرين أن يتوصلوا إلى نظرية متكاملة لهذا الكون، غير أنّ هؤلاء لم يتوصلوا إلى نظرية في الدين متكاملة، ذلك لأنّهم لم يعرفوا نعمة الوحي، فأصبح الناس في حاجة إلى من ينقـذهم مـن هـذا الهلاك، فأنعم الله على العالم عامة، وعلى العـرب خاصـة، بسـيدنا محمـد ﷺ ليخلّصهم ممّا هم فيه، فجاء بكتاب من عند الله مشتمل على كل الفضائل المنجيّـة في الدنيا والآخرة، ومـن خلال هذا الكتاب عرفنا الله وصفاته، وعرفنا علاقة الله بالإنسان وأنّ العبتادات التي كلّفنـا الله بها ميسـورة لنا، كما دعـا الله سـبحانه وتعـالى، في كتابه العزيز إلى الاعتصام بحبل الله ونبذ التفرق، فقال الله تعـالى: ﴿**واعتَصِمُوا بِحَبلِ اللهِ جَمِيعا وَلاَ تَفَرَّقُوا**﴾ (آل عمـران: 103). ولقـد ألهـم الله جماعة من أولى المعارف والنُّهى، وذوي البصائر والحِجى، أن صرفوا إلى هـذا الشأن طرَفاً من عنايتهم وجانباً من رعايتهم، فشرَّعوا فيه للناس مواردا، ومهّـدوا فيه لهم معاهداً، حراسةً للقرآن الكريم من الضياع، وحفظاً لهذا المهمّ العزيز مـن الاختلال؛ لأنَّ كتاب الله سبحانه وتعالى لا تنتهي عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ولا يمل مع كثرة الترداد وهذه التفاسير للقرآن الكريم بكاملها على كثرتها والكتب التي ألّفت في مختلف علومه لا يدركها الحدّ، ولا يصل إليها الحصر، فليس عجيبـا أن تستمر المؤلفات لاقتطاف الثمرات من كلام الله، أو استخراج الحكم والفوائد مـن كتب السابقين عن القرآن الكريم، أو توضيح ما غمض من أقوالهم، أو تقريب مـا غرب عن علومهم أو استدراك ما ند عنهم.

ولماّ كان للقرآن من أهمية ومكانة عظيمة عليّة، صنعت فيـه التصـانيف وأُلِّفت فيه التآليف، وكان من بين تلك المتـون المختصـرة، والكتـب المحـرّرة

المشتهرة، كتاب: (مفتاح دار السعادة) لابن قيم الجوزية، ولا يخفى على أحد حجم التراث العظيم الذي تركه ابن القيم رحمه الله، والذي أصبح مرتعاً خصباً لأهل العلم سواء كان من العلماء أو طلبة العلم، أو الباحثين أو الدعاة أو المفكرين.

تتكون مدونتنا (مفتاح دار السعادة) من ثلاثة أجزاء، قام بتحقيقها علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي الأثري، وقام بمراجعتها فضيلة الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد، وقامت بطبعها دار ابن القيم، ودار ابن عفان سنة 2004.

وتتجلّى أهميّة الموضوع التي دفعتني إلى اختياره فيما يلي: إنّ العلاّمة ابن القيّم كانت له اليد الطولى والقدم الراسخة في دقائق الاستنباط، لما كان يتمتّع به من جودة الفكر ودقّة النظر، الأمر الذي مكّنه من تفهّم روح الكتاب والسنة والاستشراف على أسرار الشريعة الإسلامية الغرّاء، وكان يعرف بفيض علمه وسعة اطّلاعه، وتبحّره في الفقه الإسلامي، حتىّ صار من العلماء الأعلام، وأئمة الإسلام الذين لا يشقّ غبارهم، وكان أوّل ما شدني إليه ما قرأته من مقالات في كتابه مفتاح دار السعادة، وقد وجدت فيه من سحر البيان وجمال اللغة، ما افتقدته عند كثير من الأدباء الذين قرأت لهم؛ خاصة المحدثين منهم، وهو من صفوة الأئمة الذين رفعوا أساليب العربية إلى مستوى الجمل القرآنية، شأنه شأن نوابغ الأدب كالمبرد والجاحظ وغيرهم، فحبّب ذلك إلى نفسي الكتابة عنه؛ إذ وجدت أنه أديب ممتاز بأسلوبه وبيانه، لما حبّاه الله تعالى من قوّة العبارة وصلابة الحجّة، والاطّلاع الواسع من خلال عكوفي على كتابه، فما أعجبني فيه هي لغته المتميزة، ولقد أعمل ابن القيم فكره الفذّ، وأجال قلمه البليغ وعلمه الواسع في مناقشة مسائل عدّة، وقد اتخذ القوس باريها، فأشبع فيها البحث، فلم يترك لقائل مقالا، ولا لمتكلم كلاما ووضع الحقّ في نصابه بلسان مبين المنهج مطّرد السياق، وقد أيده الله بسداد الرأي ونفاذ البصيرة.

والكتاب المسمىّ بـ (مفتاح دار السعادة) كتاب نفيس، وفيه من بدائع الفوائد وفرائد القلائد ما لا يوجد ذلك لسواه، وفيه من البحوث ما يستقصي كل علم إلى

فنّه واسمه مطابق لمسمّاه، ولفظه موافق لمعناه؛ فإنّ فيه من الإفادة ما يحدد إلى دار السعادة، ومن أجل هذا عقدنا العزم بمشيئة الله على أن يكون عنوان بحثنا **(خصائص لغة ابن قيم الجوزية من خلال مفتاح دار السعادة).**

ولما كان للعلم لغة يؤدى بها ولا حياة له بدونها، يلتقي عندها العلماء ويُعوّل عليها الطلاب، وعلى أساسها يقوم الشرح والدرس، ويعتمد التأليف والنشر تسير بسير العلم وتقف بوقوفه، ولا سبيل لأن توجد في أمة جاهلة، ولا لأن تحيا في بيئة لا تغذيها ولا تنميها، ولما كانت لغة العلم صنيع أهلـه، يصطلح عليها العلماء فتصبح لغتهم الخاصة، ولكل عالم لغة تميزه عن غيره، وكلما تقدم البحث فيها نمت وتحددت، وعليه نتساءل: ما طبيعة لغة ابن قيم الجوزية؟ هل هي لغة علميّة أم أدبيّة؟ أم هي مزيج بينهما؟ وما هي خصائصها؟ وما طبيعة الجمل التي يستعملها؟ هل هي جمل بسيطة يفهمها القارئ؟ أم هي جمل معقدة لا يفهمها إلا اللبيب؟ وما هي خصائص أسلوبه؟ وما هي السمات التي امتاز بها عن غيره؟ وما هي أهدافه التي سعى لتحقيقها ومدى موافقتها لروح الإسلام ومبادئه؟ وبماذا تميز منهجه الذي اتّبعه لتحقيق هذه الأهداف؟ وما هي طريقته التي سلكها في معالجة المسائل العلميّة؟

ومن الفرضيات المتعلقة بالبحث، نقول: ربما تكون لغة ابن القيم لغة علمية وربما تكون أدبية، ولها خصائص أسلوبية ولغوية، وربما يكون ابن القيم اتخذ لنفسه منهجا خاصا يميزه عن غيره.

وإنّ المنهج الذي يتناسب مع هذا النوع من الدراسات، هو المنهج الوصفي التحليلي، والذي يقوم على وصف الظاهرة اللغوية وتحليلها، ومن ثم إصدار الأحكام التي تبين قيمتها؛ لأنّ الوصف هو عماد الدراسات اللغوية الحديثة، والذي يعنى بوصف البنية اللغوية، وبيان وظيفتها الإبلاغية في الآن نفسه، انطلاقا من أن اللغة نظام شامل يظهر على هيأة أنظمة صغرى، يؤدي التفاعل بينها إلى تحريك جهاز اللغة.

وأما بنية البحث فقد أقمتها كما يلي: مقدمة، عرضت فيها سبب اختياري للموضوع والإشكالية، وما تحمله من فرضيات، ثم تمهيد، وتحدثت فيه عن البيئة السياسية والعلمية والاجتماعية؛ لأنّ دراسة هذه المقومات الثلاثة للبيئة ضرورية للباحث؛ لأنّ الإنسان نتاج البيئة، وهو كذلك مجموعة من المواهب الطبيعية والصفات المكتسبة من البيئة العامة والبيئة الخاصة، ولا يمكن جحد أثر الظروف السياسية والنهضات العلمية والحالات الاجتماعية في صبغ الأفراد والمجتمعات صبغة خاصة، وتلوين أهدافهم واتجاهاتهم تلوينا يتناسب والظروف التي يحيون فيها.

وقسمت البحث إلى بابين:

الباب الأول: ابن القيّم والحياة الفكريّة في عصره: وهي الدراسة النظرية وفيه فصلان:

الفصل الأول: لمحة عن حياة الإمام ابن القيم: وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الاتجاهات الفكرية: وتطرقت فيه للحديث عن حياة ابن القيم: حياته اسمه، نسبه، مولده نشأته، وفاته.

المبحث الثاني: ابن القيم وجهوده العلمية: وخصصته للحديث عن ابن القيم وجهوده العلمية: شيوخه، تلامذته، آثاره، علمه، مؤلفاته.

الفصل الثاني: ابن القيم ومفتاح دار السعادة: وفيه مبحثان:

المبحث الأول: مفتاح دار السعادة، أهمّيته ومنهجه: وخصصته للحديث عن أهمية هذا الكتاب، ومنهجه.

المبحث الثاني: أهمّية الكتاب وقيمته العلمية: وخصصته للحديث عن أهمّية الكتاب وقيمته العلمية، وذكرت بعض المآخذ عليه.

الباب الثاني: خصائص لغة ابن قيم الجوزية من خلال مفتاح دار السعادة: وهي الدراسة التطبيقية، وفيه فصلان:

الفصل الأول: خصائص أسلوب ابن القيم من خلال مفتاح دار السعادة: وفيه ثمانية مباحث:

المبحث الأول: وخصصته للحديث عن الاستطراد، وهي خاصية عرف بها ابن القيم واشتهرت في أبحاثه.

المبحث الثاني: وتحدثت فيه عن أسلوب الحوار؛ حيث استخدم ابن القيم أسلوب الحوار في غالب مناقشته لخصومه.

المبحث الثالث: وخصصته للحديث عن الأسلوب الأدبي، ففيه السجع وسائر المحسنات والذي ظهر جليا، وبصورة واضحة في مقدمة كتابه، أو مقدمات بعض أبحاثه.

المبحث الرابع: وتطرقت فيه للحديث عن الأسلوب العلمي، على أنّ ابن القيم يتحرّر تماما في أسلوبه من قيود الصناعة اللفظية، وذلك حين يناقش المسائل العلمية، أو يتناول لبّ الموضوع.

المبحث الخامس: وخصصته للحديث عن السجع، وتبدو عباراته جزلة قوية تمتاز بالوضوح والبعد عن الغرابة، ويتميز بطول النفس والمقدرة الفائقة في الإقناع.

المبحث السادس: وخصصته للحديث عن المعرفة اللغوية؛ حيث يبدو في أسلوبه أثر ثقافته الواسعة.

المبحث السابع: وخصصته للحديث عن المعرفة النحوية؛ حيث كان ابن القيم إذا عرض لمسألة متصلة بالقواعد النحوية، صال فيها وجال، كأنه عالم متخصص مع حسن توجيه.

المبحث الثامن: وتحدثت فيه عن الاقتباس من الشعر؛ حيث استطاع ابن القيم أن يستحضر من الشعر ما يتناسب مع الموضوع الذي يتكلم فيه، حتى يقع استشهاده في موضعه، ووضعه في مناسبات من عباراته توافقه وتليق به.

الفصل الثاني: خصائص لغة ابن القيم من خلال مفتاح دار السعادة: وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: وخصصته للحديث عن الخصائص الصوتية والإيحاءات الدلالية: في علاقاتها الإفرادية والكلمية والتركيبية: تناولت فيه بالتحليل الظواهر الصوتية التي تفرزها الحروف في علاقاتها مع الحروف التي تسبقها أو تتلوها، ومدى انسجام كل حرف مع الحرف الذي يسبقه أو يلحقه من خلال الكلمة أو التركيب. والانسجام الصوتي بين التراكيب في مفتاح دار السعادة، وكذا انسجام الفواصل.

المبحث الثاني: خصصته للحديث عن النظام الصرفي: تناولت فيه خصائص الكلمة مفردة من خلال تسجيل بعض الظواهر البارزة: كالترادف توظيف كلمات القرآن الكريم، ونظام الاشتقاق...

المبحث الثالث: خصصته للحديث عن نظام التراكيب، وهو بحث في خصائص الجملة عند ابن قيم الجوزية، وتسجيل بعض الظواهر اللغوية البارزة كالتقديم والتأخير الذكر والحذف، مشاكلة الأساليب القرآنية...

المبحث الرابع: خصصته للحديث عن الخصائص البلاغية، وتطرقت فيه للحديث عن أسلوب الالتفات، على أنّ ابن القيم يكثر من الالتفات في نصوصه.

وفي الأخير خاتمة، وجمعت فيها النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث والتي كان بعضها إجابات عن بعض الإشكالات التي طرحها البحث.

واعتمدت في هذا البحث على جملة من المصادر والمراجع، وكذا الدراسات التي بحثت في أدب ابن القيم، وتناولت بالدراسة مؤلفاته، ومن بينها: (ابن قيم الجوزية، عصره ومنهجه وآراؤه في الفقه والعقائد والتصوف) للدكتور عبد العظيم عبد السلام شرف الدين، وكتاب: (القواعد الفقهية المستخرجة من كتاب أعلام الموقعين) لفضيلة الشيخ أبي عبد الرحمن عبد المجيد جمعة الجزائري، وكذا كتاب (موارد ابن القيم في كتبه) لفضيلة الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد، وكذا كتاب (ابن القيم وحسّه البلاغي في تفسير القرآن) للدكتور عبد الفتاح لاشين.... وما يلاحظ

في هذه المؤلفات اهتمام هؤلاء الباحثين بدراسة شخصيته دون التعرض للجانب اللغوي لابن القيم، وهو جانب مهم في نظري، ولعل السبب في ذلك أن شهرة ابن القيم الأصولية غلبت شهرته اللغوية لأنه لم يخلف كتابا في الدرس اللغوي على النظام المعهود في بيئة اللغويين، ولكن هذا لا يمنع من التطرق لهذا الجانب خاصة ونحن لمسنا شذرات لغوية في كتبه، ونخص بالذكر كتابيه: (بدائع الفوائد) و(الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان) فهو في البيان والبديع ويدخل علم البيان في معظم أبوابه في نطاق الدّراسات اللّغوية الحديثة، فالمجاز بأنواعه والكناية في بعض صورها يعرض لها علم الدّلالة على أساس أنّها أمثلة لتعدد المعنى وتنّوعه، أو على أساس أنّها صور للتّعبير الذي يصيب معاني الكلمات والعبارات.

وباستثناء هذه المؤلفات نجد كتاب (ابن القيم اللغوي) للدكتور أحمد ماهر البقري، وما يمكن أن نسجّله في هذا الكتاب تعرّض المؤلف للجانب اللغوي لابن القيم؛ حيث إنّه خصّص فيه فصلا كاملا للحديث عن لغويّة ابن القيم (ص: 58) ولقد استهلّه بسؤال جوهري وهو: هل كان ابن القيم لغويا؟ ثم يمضي في سلسلة من التساؤلات والافتراضات التي تمثل ردودا ومناقشة لبعض آراء الباحثين الذين ينكرون لغوية ابن القيم، وإلى جانب هذه الدراسة نجد دراسة الدكتور سليمان طاهر حمودة، في كتابه الموسوم ب (ابن القيم جهوده في الدرس اللغوي) حيث استهلّ مقدمته برغبته في دراسة الجانب اللغوي لابن القيم؛ حيث يقول في (ص: 1): "ولما كنت أريد دراسة الجانب اللغوي عند ابن القيم، وهو شأن سائر ألوان النشاط العقلي يتأثر بالبيئة العامة والخاصة لصاحبها..."

وفي موضع آخر(ص: 2) يقول: "وقد خصصت الباب الثاني والأساسي من البحث لدراسة الجانب اللغوي، وقسمته إلى فصلين، أولهما جعلته للنحو ... وفي الفصل الثاني تناولت دراسة المعنى، وهي قمة الدراسات اللغوية وغايتها..."

وتبقى هذه المؤلفات لا تخلو من الثغرات؛ لأنّها لم تتعمق كثيرا في دراسة الجانب اللغوي لابن القيم، وهو جانب مهّم في نظري، وخاصة أنّ ابن القيم صاحب ثروة لا تحصى، وكنز لا ينفذ من المؤلفات التي تستحق الدراسة حقاً، ومن المراجع أيضا كتب ابن القيم التي تمكّنت من الحصول عليها.

ولا أكتم سرّا إن قلت إنّ هنالك صعوبات واجهتني، وهي من طبيعة الأمور؛ حيث إنّ كلّ بحث لا يخلو منها، وهي لا تخرج في مجملها عن تلك التي يمكن أن يلقاها أيّ باحث ينجز بحثا أكاديميا؛ فأولى هذه الصعوبات هي طبيعة الموضوع؛ حيث اقتضت مني مراجعة المصادر الأخرى للإمام ابن القيم؛ إذ قد أجد فيها من الاستدلال والتحليل ما لا أجده في مفتاح دار السعادة، ثانيها سعة الموضوع وغزارة مادته العلمية التي يحملها، فقد مضت عليّ أكثر من سنة ونصف وأنا منكبّة وعاكفة عليه، وكذا ندرة المصادر والمراجع المتخصصة.

وفي الأخير أرجو أن يكون هذا العمل خدمة طيبة، وإسهاما مني في محاولة بعث مثل هذه الأبحاث اللغوية المتخصصة، للتعريف بأعلام الفقه والسنة، وأفذاذ اللغة العربية، وهي بعض حقوقهم التي ينبغي أن يحفظها الأخلاف لأسلافهم.

البـــــاب الأوّل:

الدّراســة النّظـــريّة:

ابن القيّم والحياة الفكريّة في عصره

الفصـــــــل الأوّل:

لمحــة عــن حيــاة الإمــام

ابن قيّــم الجــوزيّة

المبحث الأوّل: الاتّجاهات الفكــريّة:

تمهيد: كلمة موجزة عن البيئة وأثرها: الحالة السّياسية والعلميّة والاجتماعيّة: للبيئة أثر في نفوس أبنائها يختلف باختلافها؛ فإن كانت سهلة طبعتهم بطابع السهولة واللين، وإن كانت جبلية خلعت عليهم الخشونة والغلظة، وسأعنى في دراسة البيئة للحالة السياسية، وسأهتم بالسياسة الداخلية والخارجية: الصليبيين والتتار، أماّ عن السياسة الداخلية، فسأبيّن العلاقة بين السلطان والخليفة، وبين السلاطين بعضهم مع بعض؛ إذ لا يخفى أثر السياسة الداخلية في نفوس الأفراد والجماعات، وأمّا عن السياسة الخارجية فسأشير إلى الحروب الصليبية، وإلى هــجمات التتار على بلاد المسلمين، وقد كان هذان الحادثان سابقين لمولد ابن القيم، ولكن كان لهما أثر في خلق التحمّس الديني في المسلمين نتيجة لتحمّس الفرنج لدينهم، وتعصّبهم ضدّ المسلمين، وهذا التعصّب الديني من الفريقين لم يخنق من الوجود بإنهاء الحروب الصليبية، بل استمرّ إلى ما بعدها، أما هذه الحروب فقد استمرّت نحو قرنين (سنة 490 هــ- 690 هــ) التقى فيها المسلمون بالفرنج وذهب ضحيّتها أرواح بريئة، وختمت بنصر المسلمين على أعدائهم، ولقد قضى التتار على الخلافة العباسية في بغداد، وحرقوا كثيرا من الكتب، وقتلوا الأبرياء فتلفت العالم الإسلامي إلى قوّة تحميه، فما وجد هذه القوّة إلا على يد المماليك الذين ظهروا بمظهر حماة الدين؛ ليجمعوا القلوب حولهم، وإذا كانت الخلافة في بغداد قد عجلت نهايتها ما كان فيه الخلفاء من غفلة من دينهم، فقد أخذ المسلمون من هذا عبرة لهم، واستيقظوا من غفلتهم، وبدأوا يحيون حياة الجدّ، وهرعوا إلى الدّين يتخذون منه دستور الحياة الجديدة، وبدأ العلماء يعرفون موقفهم من الحكاّم، فلم يتهاونوا لهم في حقوق الأمة.

وأما الحياة العلمية فهي المدرسة التي يتخرّج فيها العلمــاء، ولهــذا كانــت دراستها ضرورية حين يتعرّض الباحث لدراسة عالم من العلماء.

وأما الحياة الاجتماعية فإنّها تكشف عن العلاقات بين الطوائف المختلفة: طائفة الحكّام وطائفة العلماء، وطائفة العامة، وقد منىّ العالم الإسلامي سنة (656 هـ) بحادث زلزل كيانه، وحطّم جهاز الدولة الإسلامية "هذا الحادث هو استيلاء (هولاكو) على بغداد، وقتل الخليفة المستعصم بالله، وإراقة الدماء الزّكيّة فقد أمر (هولاكو) بضرب أعناق الفقهاء والأعيان، واستمرار القتل والنّهب في بغداد بضعة وثلاثين يوما، فلم ينجُ منهم إلا من اختفى[1]" وبهذا تمّ القضاء على دولة بني عبّاس في بغداد نتيجة لحياة اللّهو والترف التي انغمس فيها خلفاؤهم، وقد غيّر هذا الحادث وجه التاريخ، وأيقظ العالم الإسلامي من سباته العميق؛ فأيقن أنّ إسلام أمره إلى الحكّام دون مناقشتهم فيما يأتون هو الذي أطمع عدوّهم وحضد شوكتهم وما كانت مطامع التتار لتقف عند هذا الحدّ، ولم ترتو نفوسهم بالدماء التي أراقوها في بغداد، بل أخذوا يَغيرون على بلاد الشام حتىّ وصلوا في زحفهم إلى غزة، وقد أوقعوا الرعب في نفوس الشاميين "وتلفت الناس إلى رجل الساعة، فكان الملك المظفر قطز سلطان مصر الذي التقى بالتتار في عين جالوت[2]" ولقد اشتد القتال بين الفريقين حتى باشر قطز القتال بنفسه، وكان يشجّع الجنود ويحسّس إليهم الموت، وقد أسفرت المعركة عن هزيمة التتار، ولم تقم لهم قائمة بعد هذه الموقعة وقد فرح الناس بهذا النصر ودخل قطز مدينة دمشق ترفرف حوله الأعلام وتحيط به القلوب، وظلّ حاكم مصر إلى أن قتلته زوجته شجرة الدر في الحمام، وأعانها جماعة من الخدّام لغيرتها حين همّ بالزواج من أخرى، ثمّ خلفه ابنه السلطان الملك المنصور نور الدين عليّ على ملك مصر في يوم الخميس خامس وعشرين من ربيع الأول سنة (655 هـ) وظلّ حاكم مصر إلى أن عمل قطز على انتزاع السلطة منه سنة (657 هـ) وكان هذا النصر تمهيدا لأن يتولى قطز حكم الشام

---

1 – عبد العظيم عبد السلام شرف الدين، ابن قيم الجوزية، عصره منهجه وآراؤه في الفقه والعقائد والتصوف، ط 3. الكويت: 1984، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، ص 14.

2 – المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

إلى جانب حكم مصر، فجاءه حكّام الشاّم وأعلنوا ولاءهم له، وبهذا خضعت مصر والشام لحاكم واحد كان يقيم في مصر، وقد اتصل المسلمون بالمسيحيين أيام الحروب الصليبية، وكان الدافع إلى هذه الحروب سوء الحالة الاقتصادية في أوربا حتىّ أصبح الناس في عوز وفقر، كما أنّ صاحب القسطنطينية ضاق ذرعا بسوء المعاملة التي كان يلقاها من السلاجقة، وبالضرائب التي فرضوها عليه، فاستنجد بملوك أوربا واستغاث بهم، وكان المسيحيون يعتقدون أنّ المسيح يرضى عن عملهم إذا أخذوا القبر المقدّس من أيدي المسلمين.

1- دمشق في عصر ابن القيم: كانت دمشق على درجة عالية من الازدهار العمراني في القرن السابع الهجري وما بعده، وقد وصفها ياقوت الحموي بإعجاب قائلا: "ومن خصائص دمشق التي لم أر في بلد آخر مثلها كثرة الأنهار بها وجريان الماء في قنواتها فقلّ أن تمر بحائط إلا والماء يخرج منه في أنبوب إلى حوض يشرب منه ويستقى الوارد والصادر، وما رأيت بها مسجدا ولا مدرسة ولا خانقاها إلا والماء يجري في بركة في صحن هذا المكان، ويسبح في منصته وجملة الأمر أنه لم توصف الجنة بشيء إلا وفي دمشق مثله، ومن المحال أن يطلب بها شيء من جليل أعراض الدنيا ودقيقها إلا وهو فيها أوجد من جميع البلاد[1]" وممّا لا شك فيه أنّ الازدهار العمراني الذي تمتعت به هذه المدينة كان مقترفا بنشاط علمي واسع كانت معاهد المدارس والمساجد والخوانق الكثيرة التي عرفتها المدينة، وكانت دمشق مدينة حسنة الترتيب، جليلة الأبنية ذات حواجز بنيت من جهاتها الأربع وغوطتها أحد مستلزمات الدنيا العجيبة المفضّلة على سائر مستلزمات الأرض، وكذلك الربوة، وهي كهف في فم واديها الغربي، عنده تتقسم مياهها... وبها الجوامع والمدارس والخوانق والربط والزوايا والأسواق المرتبة والديار الجليلة المذهبة السقف المفروشة بالرخام المنوّع ذات البرك والماء

1- ياقوت الحموي، معجم البلدان، تح فريد عبد العزيز الجندي، ط 3. لبنان، د س، دار الكتب العلمية، المجل 2، ص 590.

الجاري، وربما جرى الماء في الدار الواحدة في أماكن منها، والماء محكم عليها من جميع نواحيها بإتقان محكم، وقد قسمت بلاد الشام – لذلك العهد– من الناحية الإدارية إلى نيابات ست وهي: دمشق، حلب، طرابلس، حماه صفدن، الكرك ويراعي هذا التقسيم الطبيعة الجغرافية، وكانت هذه النيابات خاضعة للحكومة المركزية في القاهرة، وكان لكل منها ما يشبه الاستقلال الذاتي في النواحي المالية والإدارية، وكانت هناك وظائف كثيرة بكل نيابة، وكانت تنقسم إلى قسمين:

– قسم يراعي وظائف يختص بها أرباب السيف: وهي تتمثل في النيابات والولايات وأمراء الجند، والجند.

– وقسم تكون من نصيب أرباب القلم الذين يكونون غالبا من العلماء والفقهاء.

وتتمثّل أهمّ وظائف أرباب القلم في القضاة الذين كانوا يمثّلون المذاهب الأربعة، ولكل طائفة منهم رئيس يعرف بقاضي القضاة، وكان بدمشق أربعة قضاة من المذاهب الأربعة وأعلاهم الشافعي، وهو المتحدث على الموازع الحكمية والأوقاف وأكثر الوظائف، ويختص بتولية النوات في النواحي، وبجميع أعمال دمشق، حتى غزة ويليه في الرتبة الحنفي، ثم المالكي ثم الحنبلي.

2– الخصائص العلمية للعصر: تميز العصر بكثرة مؤلفاته التي اتّسم كثير منها بالموسوعية؛ ذلك أن العلماء كانوا يحسّون بعد الخراب الذي حلّ ببغداد أنّ عليهم واجب إحياء علوم الدين واللغة، ومحاولة سدّ ما حدث بها من نقص، وقد أنتج العصر آلاف الكتب والرسائل، وعرف كثير من رجاله بكثرة التأليف، ولم تكن كثرة التأليف نتيجة عن رغبة في إحياء ما درس ببغداد فحسب، بل كانت لها عوامل كثيرة، منها نضج كثير من العلوم، واحتراق بعضها من كثرة ما ألّف فيه ووضع من متون وشروح "وقد كانت ظاهرة المتون والشروح غالبة وواضحة وكثرت المنظومات التعليمية، وأشهر منها ألفية الحافظ العراقي في علوم الحديث وألفية ابن مالك في النحو، وغير ذلك، كما كانت هناك موشحات تنظم في بعض

العلوم[1]" وهكذا اشتمل التأليف لذلك العصر على جميع الأشكال الممكنة ما بين متن نثري وشرح له، وحاشية على الشرح ومنظومة شعرية، وشــرح لهــا وموشــح بالإضافة إلى الكتب التي توضع مبسوطة؛ فلا تحتاج إلى شروح أو لا تشرح لقلة عناية الدارسين... إلى آخر هذه الأشكال التصنيفية.

أ- **معاهد الدروس:** تميز العصر بكثرة معاهد الدروس؛ فهناك المساجد التي درج كبار العلماء على أن يلقوا في حلقاتها دروسهم المتخصصة، بالإضافة إلــى المدارس التي كانت تلحق بالمساجد في أحيان كثيرة، وكانت لها أوقاف ينفق منها على عمارتها وشيوخها وطلبتها، كما وجدت الزوايا والخوانق التي قد يقــيم فيهــا جماعات من الصوفية الذين ينقطعون العبادة والعلم، وتجرى عليهم الأرزاق مــن أوقافها، وقد اشتهر منها بالقاهرة مدرسة السلطان حسن، التي أشــاد المؤرخــون والرحالة الأجانب بعظمتها، ولا تزال رسومها شاهدة على ذلك والخانقاه البيبرسية والخانقاه الشيخونية، وقد حظيت المدن الكبرى غير القاهرة بهذه المؤسّسات العلمية من مدارس وخوانق فضلا عن المساجد، ولكن النشاط العلمي بالقاهرة كان أكثــر ازدهارا وحيوية، وكان يعين لكل مدرسة أو خانقاه شيخ يقرره السلطان بالقــاهرة أو من ينوب عنه في المدن الأخرى ويكون الشيخ مشرفا علــى أوقافهــا وأوجــه نشاطها، ويراقب النواحي العلمية والإدارية والمالية، وتُعدّ المدرسة الجوزية بدمشق مثالا للمدارس، وقد كان القيم عليها أبو بكر بن أيوب والد الإمام ابن القــيم، وقــد غلب عليه نعته الوظيفي؛ فعرف ولده بــ (ابن القيم). ويصــــف ابــن خلــدون (808 هــ) حالة العلم والتعليم بالقاهرة التي كانت تعد عاصمة القطــرين مصــر والشام، وهو مؤرخ عاصر هذه الحقبة وشهد معالمها: "ونحن لهذا العصر نرى أنّ العلم والتعليم إنّما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما أن عمرانها مستبحر، وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت، ومن جملتها تعلــيم

1- طاهر سليمان حمودة، ابن قيم الجوزية، جهوده في الدرس اللغوي، د ط. مصــر، د س، دار الجامعات المصرية للنشر والتوزيع، ص 12.

العلم، وأكّد ذلك فيها، ونفظه ما رقع لهذه العصور منذ مائتين من السنين في دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب وهلم جرا، وذلك أنّ أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم لما له عليهم من الرق أو الولاء، ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته، فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط، ووقفوا عليها الأوقاف المغلة يجعلون فيها شركا لولدهم بنظر عليها أو نصيب منها، مع ما فيهم غالبا من الجنوح إلى الخير، والتماس الأجور في المقاصد والأفعال، فكثرت الأوقاف لذلك، وعظمت الغلاّت والفوائد، وكثر طالب العلم ومعلّمه بكثرة جرايتهم منها، وارتحل إليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب، ونفقت بها أسواق العلوم وزخرت بحارها[1]" وعليه؛ فإنّ هذا النشاط العلمي الذي شهدته القاهرة كانت له أصداء في جميع العالم الإسلامي، فيسمع ابن خلدون عن القاهرة، ويكتب عنها قبل أن يحضر إليها، فإذا ما حضر لم يغير ممّا كتب شيئا. وكانت مدن مصر والشام على وجه الخصوص تنعم لذلك العهد بنشاط علمي وافر ولعلّ دمشق كانت أوفر المدن حظاً بعد القاهرة من النشاط العلمي.

ب- نظام الدراسة: كانت وظائف التدريس بالمدارس جليلة القدر، وكان السلطان هو الذي يقرر صاحبها في وظيفته، وكان نائب السلطة بالشام يقوم مقام السلطان في ذلك وهذه الوظائف بالطبع تكون بقدر من يتولاها، ولذا وصفت من معاصريها بأنها تختلف باختلاف حال من يتولاها في الرفعة وغيرها، وتوجد إلى جانب هذه المدارس المكاتب الملحق بها أو غير الملحقة، وتعنى بتعليم الصغار مبادئ هذه القراءة والكتابة، وتحفيظ القرآن، وطرفا من العلوم الأولية، وكانت هذه المكاتب تمهّد للالتحاق بالمدارس الكبيرة.

وكانت المدارس تختلف في درجاتها من قبل من يتولون مشيختها، والتدريس بها من الأعلام المشهورين أو من دونهم، بالإضافة إلى مقدار ما رصد لها من

---

1 – عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، تح حامد أحمد الطاهر، ط1. بيروت: 2004، دار الفجر للتراث للنشر والتوزيع، ص 700.

أوقاف وأرزاق ينفق منها على القائمين بالتدريس، والمعيدين والطلبة المنقطعين للدرس، فضلا عن النفقات الأخرى التي تحتاجها مرافق المدرسة والمكتبة الملحقة بها، والدراسة بهذه المدارس أشبه ما تكون بالدراسة الجامعية النظرية من حيث طريقة التدريس، ومستوى الدراسة، ونظم التلقي، بل إنها تمتاز عن النظم الحديثة بأنّ طلابها كانوا لا يجيدون من العقبات والعوائق ما يحول بينهم وبين تحصيل العلوم، أما فيما يختصّ التلقي، فكان الطالب يحضر دروس أحد المدرّسين حتى يأخذ عنه كفايته ثم ينتقل إلى الآخر، وكلما كان عدد الشيوخ الذين لقيهم الطالب وشهدوا له أكثر، كان ذلك أدعى لفضله وعلوّ قدره، وكذلك الحال بالنسبة لشهرة الشيوخ الذين يتلقّى عنهم الطالب ويشهدون له، فقدر الشهادة قدر الشهود، ولا شك أنّ لهذه الطريقة مزايا متعددة تتمثل في حرص الطالب على حضور دروس أكبر عدد من الشيوخ، لا سيما ذوي الأصالة والشهرة منهم، بالإضافة إلى عنايته بالتحصيل، وأخذ نفسه بالجد، حتى يشهد له شيوخه. فالحصول على الإجازة يستلزم من الطالب إتقان ما درسه على الشيخ واستيعابه وتفهمه، أو حفظه في بعض الأحيان، فإذا ما قام بذلك استوجب أن يمنح إجازة بتدريس كتاب ما، أو علم من العلوم، أو الإفتاء في مذهب من المذاهب الفقهية في جميع فروع الفقه، أو في بعضها دون بعض، ولقد كانت هذه التقاليد مرعية متعارفا عليها لذلك العصر، وقد عرفت هذه المدارس في مصر والشام نظام المحاضرات، ولم يكن حضور الدروس في أحيان كثيرة مقصورا على الطلبة المتفرغين، بل كان عاما لمن يبتغي العلم لا سيما دروس مشاهير العلماء، وقد عرفت المحاضرات باسم المجالس، وهي طريقة قديمة في التعليم يقوم فيها المدرس بإملاء مجالسه على طلبته.

3- الحياة السياسية: وبعد أن بيّنا صورة الحياة الحضارية والثقافية بدمشق في عصر ابن القيم، وكشفنا عن أهمّ خصائص الحركة العلمية لذلك العهد بصفة عامة، نرى إكمالا لتصوير البيئة أن نتناول بعض ملامح الحياة السياسية المعاصرة له، فابن القيم باعتباره فقيهًا مجتهدًا مشهورًا لا بد أن تؤثر فيه نظم

الحياة التي يعيشها، وأن يصدر عنه ما يكون انعكاسا لبعض ملامحها، ولا بدّ أن يكون له موقف مؤيد أو معارض بالنسبة للمجتمع الذي يعيش فيه، والذي تحكمه أطر سياسية واجتماعية وثقافية معينة.

أما عن شكل الدولة فقد كان أمراء المماليك (حكام البلاد) وكان هناك الخليفة العباسي بالقاهرة، وكانت الخلافة متوارثة فيهم منذ أن انتقلوا من بغداد، وقادهم المماليك منصب الخلافة بالقاهرة؛ ليكونوا مظهرا من مظاهر شرعية حكمهم، وكان منصب الخلافة شكليّا إلى حدّ كبير؛ فالخلافة ليس لها حلّ ولا عقد بجانب السلطان الذي يكون دائما من المماليك، واقتصر دور الخليفة على تولية كل سلطان جديد مراعاة للشرعية شكلا؛ لأنّ المفروض أن يستمدّ الولاة جميعا سلطتهم من الخليفة الذي يمثّل قمّة الحكم في النظام الإسلامي، وكان مقرّ السلطان بالقاهرة، وكانت بلاد الشام مقسّمة إلى نيابات ست، لكل منها نائب يعينه السلطان، وكان أكبر هؤلاء هو نائب دمشق وكان يطلق عليه – في كثير من الأحيان– نائب الشام، وقد كان التنافس بين أمراء المماليك على السلطة واضحا طيلة هذه الفترة، ولذلك تميّز العصر بعدم الاستقرار السياسي، بيد أنّ الفترة التي كانت فيها حياة ابن القيم تميزت بنوع من الاستقرار النسبي؛ لأنّ معظمها كان في حكم الناصر محمد بن قلاوون، وهو من أشهر سلاطين المماليك، وأكثرهم قوة وآثارا وأطولهم في مدة الحكم، وشهدت حياة ابن القيم من سلاطين المماليك الملك الأشرف بن قلاوون الذي قتل عام (693 هـ) ثم تولّى السلطنة بعده أخوه الملك الناصر محمد بن قلاوون، وكان له من العمر تسع سنين ولكن أحد مماليكه ثار عليه وخلعه، وتولى مكانه، وهو السلطان (كتبغا) الذي تولى عام (693 هـ) وتولى من بعده حسام الدين لاجين عام (696 هـ) بعد أن خلع سلفه، وفي عام (698 هـ) عاد الناصر محمد بن قلاوون إلى مصر من منفاه بناء على رغبة أمراء المماليك الذين اجتمعوا على توليته، وكان بالكرك، فعاد وتولّى السلطنة للمرة الثانية، وفي عهد الناصر محمد عام (699 هـ) حدث هجوم غازان ملك التتار حفيد هولاكو الذي زحف إلى الفرّات في جموع كثيفة، فخرج إلى قتاله

الناصر محمد، وحدثت بين الفريقين معركة انتصر فيها التتار، وهزم السلطان وجنوده ولكنه استطاع الهروب والعودة إلى مصر، وجدير بالذكر أن غازان زحف على ضياع الشام، ونهب ما فيها وسلب أهلها، فتشاور أهل الشام مع جماعة من العلماء الذين كانوا بدمشق على أن يخرجوا في طلب الآمان من ملك التتار، وكان من بين هؤلاء العلماء تقي الدين بن تيمية الحراني شيخ ابن القيم، وقد استجمع الناصر قوته، فجمع عددا كبيرا من مماليك مصر والشام، ومن العربان وغيرهم وعاود مهاجمة غازان، وحدثت معركة كبيرة بين الفريقين في "مرج راهط" أسفرت عن انتصار كبير للناصر وجنوده ولكن لم تستقر الأمور للناصر، فقد انفرد دونه بالسلطنة نائباه سلار وبيبرس الجاشنكير حتى اضطر إلى أن يخلع نفسه من السلطنة مرة ثانية بعد عشر سنين من ولايته. وتولى بعده بيبرس الجاشنكير عام (708 هـ) وقد حاول بيبرس أن يضيّق على الناصر محمد بعد خلعه، فما كان من الأخير إلا أن دعا نواب الشام بعد أن رحل إليها لمساعدته وذكرهم بصنيع أبيه، وما له عليهم من حقّ العتق والتربية، فتحمس له النوّاب واجتمعوا حوله، وجمعوا مماليكهم وسائر جندهم، وكان في نفس الوقت كثير من مماليك مصر يفدون إليه لمساعدته، ولما رأى بيبرس كثرة أنصار الناصر محمد لم يجد بدّا من خلع نفسه، فتمّ بذلك الناصر محمد تسلّم مقاليد الحكم للمرة الثالثة عام (709 هـ) واستتب له الأمر، وامتدت فترة حكمه حتى عام (741 هـ) تاريخ وفاته، وقد تميزت هذه الفترة بشيء من الاستقرار النسبي في ذلك العصر الذي حفل بكثير من المغامرات السياسية التي قام بها أمراء المماليك الطامعون في السلطة، وبعد وفاة الناصر محمد، تولى أبناؤه من بعده واحدا بعد الآخر وسط مؤامرات قام بها أمراء المماليك، كانت تنتهي بقتل السلطان أو خلعه وتولية أخيه مكانه، وهو ما يعطي صورة لعدم الاستقرار السياسي؛ إذ كان بعض هؤلاء السلاطين لا يبقى في حكمه بضعة أشهر، وآخر السلاطين الذين شهدتهم حياة ابن القيم هو السلطان حسن الذي تولى عام (748 هـ).

أما نيابة الشام فقد كان نائبها يعين من قبل السلطان، ويقال إن أحد هـؤلاء النواب وهو " **قفجق**" هرب مع جماعة من المماليك خوفا مـن السـلطان لاجـين وذهبوا إلى غازان ملك التتار، وحرضوه على غزو الشام، وكان هـــروبه عـام (697 هـ) وقد تولى بعده مملوك يعرف باسم "أقوش الأفرم" خلعه السلطان عـام (711 هـ) وولى مكانه "كراي" المنصوري فترة يسيرة، ثم قبض علـى كـراي وأعاد أقوش إلى نيابة الشام، بيد أن أكثر نواب الشام شهرة هو تنكز الحسامي الذي عيّنه الناصر محمد عام (711 هـ) وقد كان هذا النائـب مقرّبـا مـن السـلطان وتزوج السلطان بابنته وامتدت نيابته ثمانية وعشرين عاما، حتى خلعه السـلطان عام (745 هـ) بعد أن ساءت العلاقات بينهما، والجدير بالذّكر أنّ هـؤلاء الحكام جميعا كانوا يمثلون طبقة ارستقراطية متميزة عن سائر طبقـات الشـعب؛ فكـان الأمراء يعيشون في نعيم وترف باذخ يدلّ عليه ما يحصيه المؤرخون لهـم مـن الأملاك والمقتنيات، ومهما تكن المبالغة في التقدير، فإنّ ذلك يعكس صورة الثّراء الفاحش الذي عاش فيه الحكّام، وهو ثراء مقترن بالظلم واستغلال السـلطة، أمـا العوامل الخارجية المؤثرة في الحياة السياسية فتتمثل في أمرين رئيسين:

"**أولهما:** الحروب الصليبية التي انتهت عام (690 هـ) لكن آثارهـا فـي إذكاء الروح الدينية، وتنشيط همم المسلمين كان قوياً وفعّالا، وكانت سببا فـي أن يعكف المسلمون على دراسة دينهم، مدافعين عنه داعين إليه، مهاجمين خصـومه من أصحاب الأديان الأخرى، وهو ما نجد أمثلة له عند ابن تيمية، وابن القيم فـي موقفهما من اليهود والنصارى.

وثانيهما: يتصل بالحروب ضد التتار الذين أسقطوا بغداد عام (656 هـ) بعد أن اكتسحوا شرق العالم الإسلامي وهم كفّار وثنيون، وقد صدّهم المماليك في معركتين قاسيتين بالشام هما عين جالوت وبيسان[1]" لكن أخذ هؤلاء التتار يعاودون الزحف بعد ذلك بالرغم من أنهم دخلوا في الإسلام، وقد دعا ذلك سلاطين المماليك

1- طاهر سليمان حمودة، ابن قيم الجوزية، جهوده في الدرس اللغوي، ص 20.

إلى استنفار الهمم لمقاومتهم، وقد هزم المماليك أمام التتار في موقعة الخزندار وفي موقعة حمص. وخرج العلماء ومنهم ابن تيمية يطلبون الأمان من غازان قائدهم، لكن السلطان الناصر جمع عدّته ورجاله، والتقى بهم في المرج، وكان بالجيش ابن تيمية يحرّض المقاتلين ويرغّبهم في الجهاد، وقد هزم التتار هزيمة منكرة، ولم تقم لغازان بعدها قائمة، وقد حضر الموقعة الناصر محمد، والخليفة وبعض الفقهاء، وكانوا يسيرون بين الجنود يحثّونهم على الجهاد، وأثرت هذه الحروب في الحياة العامة؛ فقد اعتدّ الناس بعد الانتصار بأنفسهم، ويتطلعون إلى مزيد من الحرية السياسية وحرية الفكر، وتظهر الحرية السياسية في طبيعة علاقة الحكّام بالمحكومين، فالمحكومون لا يستسلمون دائما لما يمليه الحكّام؛ بل يناقشونهم ويراجعونهم، والمعبرون عن رغبات الشعب لذلك العهد هم الفقهاء بما هم حملة شرع الله الذي هو ميزان عادل لجميع أنواع العلاقات، وكثيرا ما كان الفقهاء يمتنعون عن غفتاء الحكّام ممّا يرغبون فيه، عندما يرون ذلك مخالفا للشرع أو للمصلحة العامة التي هي من الشرع بسبب، وظهر أثر الحرية الفكرية في بعض الأبحاث العلمية عند بعض العلماء الذين هاجموا التقليد، ودعوا إلى الاجتهاد وانتقدوا التعصّب لمذهب من المذاهب الفقهية دون تبصّر، أو رويّة أو مناقشة موضوعية للمذاهب الأخرى، ودون الاستناد إلى الأدلة المعتبرة.

ولعل خير من يمثل حرية الفكر في دراسته – لذلك العهد– ابن تيمية وتلميذه ابن القيم اللذان كلّفتهما هذه الحرية بنوعيها السياسي والفكري كثيرا من العناء في حياتهما. فتعرّض ابن تيمية للطرد من وظيفته حين امتنع عن إفتاء السلطان بما يهواه، وتعرّض للحبس أكثر من مرة بسبب أرائه المخالفة لأراء فقهاء عصره، كما حبس مع تلميذه في حبسه الأخير، وتعرّض ابن القيم من بعده بسبب هذه الآراء لضروب كثيرة من العنف والتضييق.

ترجمة الإمام ابن القيم:

إنّ من أهمّ الأمور اللازمة للحفاظ على دعوة مــن الــدعوات أو فكــرة أو رسالة أو هدف، هو وجود من يؤمن بتلك الدعوة أو الرسالة أو الهدف، فلا بدّ لكل فكرة أو دعوة من رجال يحملونها ويعتنقونها ويروّجون لها، وأيضًــا لا بــدّ مــن وجود كوادر وأجيال تحمل هذه الفكرة والدعوة، وكلّ جيل مطالب بتوصيل الفكرة والدعوة لمن يليه من الأجيال لتكتمل المسيرة، وتصل الدعوة والفكرة لعموم الناس حتى يتحقق ما يسمّى باستفاضة البلاغ أو البلاغ العام، ونلمــح هــذا فــي جيــل الصحابة الأوّل، الذين تربّوا في مدرسة النبوة في بيت الأرقم بن أبي الأرقم، ولــو قمنا بعمل حصر لأسماء الخريجين من هذه المدرسة، سنسجدهم الذين حملوا عاتق الفكرة والدعوة على أكتافهم، ونشروها في أرجاء المعمورة؛ ولذلك أيّ دعوة مــن الدعوات مطالبة بتربية كوادرها على تحمّل الفكرة ونشرها بــين النــاس، ولعــل التفريط – ولو في أقلّ القليل من هذا المطلب – لهو أوّل أسباب انقراض الدعوات فكم من فكرة ماتت بموت صاحبها، وكم من دعوة انقرضت بذهاب قائــدها، قــال رسول الله ﷺ ﴿ **بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً** ﴾ ونلمح معنى هذا الكلام في قول الشــافعي رحمه الله عن الإمام الكبير الليث بن سعد: كان الليث رحمه الله أفقه مــن مالــك ولكن أصحابه لم يقوموا به؛ يعني لم يكن منهم من يحمل مذهب الليث فينشره بين الناس، فمات بموت الليث فِقه كثير وعلم كبير، وإنّما أذكر هذه المقدمــة لأنّ ابــن القيم حمل على عاتقه نشر فكر أستاذه ومعلّمه ابن تيمية، ذلك لأنّ الأمّة كانت في أمسّ الحاجة لمن يحمل علم هذا الأستاذ، ويروّج لآرائه وأفكاره التي مثّلت سراجًا منيرًا وسط ظلام الجمود والتعصب المذهبي والبدع الفاشية في عصره.

أ– **نسبه ونسبته:** هو الفقيه، المفتي، الإمام الربّاني شيخ الإسلام الثاني أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزُّرعي ثــم الدِّمشــقي الشهير ب" ابن قيّم الجوزية" وهو الإمام الكبير المعروف والمشهور بــابن القــيّم والقيّم هو النّاظر أو المسؤول، وكان أبوه قيّمًا على المدرسة الجوزية، ولــد ســنة

(691 هـ) – أي أنه أصغر من أستاذه شيخ الإسلام ابن تيمية بثلاثين سنة– بمدينة دمشق، ونشأ من صغره على حبّ العلم ودراسته، فعني بسماع الحديث وبرع في علوم متعددة لا سيما علم التفسير والحديث والأصلين، وتلقّى علم الأصول على يد الصفي الهندي، وابن تيمية وغيرهما من أهل العلم، وتفرّغ لطلب العلم والاجتهاد فيه، حتى أصبح فريدًا في بابه في فنون كثيرة، واقتنى كثيرًا من الكتب عن السلف والخلف ما لم يحصل لغيره، ولا حتى عُشر ما عنده، حتى إنّ أولاده وكانوا كلهم من العلماء الكبار اصطفوا لأنفسهم كثيرًا من هذه الكتب، ثم باعوا الباقي، فبلغ مقدارًا كبيرًا من المال لروّاج بضاعته عند الناس.

ب– أسرته ونشأته وطلبه للعلم: نشأ ابن قيّم الجوزية في جوٍّ علميّ في كنف والده الشيخ الصالح قيّم الجوزية، وأخذ عنه الفرائض، وذكرت كتب التراجم بعض أفراد أسرته كابن أخيه أبي الفداء عماد الدين إسماعيل بن زين الدين عبد الرحمن، الذي اقتنى أكثر مكتبة عمّه، وأبناؤه عبد الله وإبراهيم، وكلّهم معروف بالعلم وطلبه، وعُرف عن ابن قيم الجوزية الرغبة الصادقة الجامحة في طلب العلم والجَد والتّفاني في البحث منذ نعومة أظفاره، وبهذا يكون قد بدأ الطلب لسبع سنين مضت من عمره.

ويعتبر ابن القيّم علما من أعلام الفكر الإسلامي في عصره، ممّا يدفعنا إلى الحديث عن السمات التي تميزت بها الحياة الفكرية في ذلك العصر الذي عرف بعصر المماليك أو العصر المغولي، ابتداء من سقوط بغداد على أيدي التتار سنة (656 هـ) إلى دخول السلطان سليم الشام ومصر سنة (923 هـ).

أما عن أخلاق ابن القيم " فكان حسن القراءة والخلق، كثير التودد للناس لا يحسد أحدًا ولا يؤذيه ولا يستعيبه ولا يحقد على أحد، وكنت من أصحب الناس له وأحبّ الناس إليه، ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة له منه[1] " وكان

1 – إسماعيل ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، تح مكتب تحقيق التراث، د ط. بيروت، د س، دار إحياء التراث العربي للنشر والتوزيع، ج 4، ص 270.

الغالب عليه الخير الجمّ والأخلاق الصالحة، وبالجملة كان قليل النظير في مجموعه وأموره وأحواله، أمّا عن عبادته، فقد كان عالمًا ربّانيًا لا يغلب اشتغاله بالعلم على عبادته، بل كان كثير العبادة، خاصة الصلاة وقراءة القرآن، وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جدًا، ويمد ركوعها وسجودها، حتىّ كان أصحابه يلومونه كثيرًا في ذلك، وهو لا يرجع عن تلك الطريقة في الصلاة.

ولقد جاور الكعبة فترة من الزمان، فرأى الناس من عبادته وتبتّله ودعائه لله عز وجل ما ذكرهم بأحوال الصالحين من سلف هذه الأمة، ولمّا سجن في معتقل الشام مع شيخه انقطع لقراءة القرآن، وأكثرَ من ذلك، حتى فتح الله عز وجل عليه في علم التفسير وصار إمامًا لا يبارى في استخراج المعاني واللطائف من الآيات وهو مع مكانته العلمية العالية التي شهد بها أهل العلم في عصره وعبادته المشهورة، إلاّ أنّه كان طويل البكاء شديد الخوف، دائم المعاتبة لنفسه على التقصير والتفريط، وكان يتمثل بهذه الأبيات:

" بَني أَبي بَكر كَثيرٌ ذُنُوبُهُ فَلَيسَ عَلَيَّ من عَوَضه إثمٌ
بَني أَبي بَكر غَدا مُتَصَدرًا تَعلَمُ علمًا وَهُوَ لَيسَ لَهُ علمٌ
بَني أَبي بَكر جَهُودٌ بنَفسه جَهُولٌ بأَمر الله أَنى لَهُ العلمُ
بَني أَبي بَكر يَرُومُ تَرقيًا إلى جَنّة المَأوى ولَيسَ لَهُ عُذرٌ[1]".

ج – **مكتبته:** أتمّ ابن القيم دراسته في وقت مبكّر، وتفقّه في المذهب الحنبلي وبرع وأرقى في حياة شيخه ابن تيمية، وبلغ مبلغا كبيرا في حياة كثير من شيوخه وقد وصفه تلميذه ابن رجب بأنّه "كان عارفا بالتفسير، لا يماري فيه بأصول الدين وإليه فيه المنتهى، وبالحديث ومعانيه وفقهه ودقائق الاستنباط منه لا يلحق في ذلك وبالفقه وأصوله والعربية، وله فيها اليد الطولى، وبعلم الكلام وغير ذلك، وعالما بعلم السلوك وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ومتوله وبعض رجاله... وما رأيت

1 – ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، د ط. بيروت: 1993، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع، ج 4، ص 22.

أوسع منه علما ولا أعرف بمعاني القرآن والحديث والسنة وحقائق الإيمـــان منـــه وليس هو بالمعصوم ولكن لم أر في معناه مثله[1]" وهكذا تصدّر ابن القيم للتـــدريس ونشر العلم فدرس بالصدرية وأقام بالجوزية مدة طويلة، وكان ابن قـــيّم الجوزيـــة مُغرمًا بجمع الكتب، وهذا دليلُ الرَّغبة الصّادقة للعلم بحثًا وتصنيفًا، وقراءةً وإقراءً يظهر ذلك في غزارة المادة العلمية في مؤلفاته، والقدرة العجيبة على حشد الأدلـــة وقال ابن كثير: "واقتنى من الكتب ما لا يتهيأ لغيره تحصيل عُشْرِه من كتب السلف والخلف[2]" وهكذا كان ابن القيم شديد المحبّة للعلم والبحث، والمطالعة والتصـــنيف واقتناء الكتب ما لم يحصل لغيره.

د- رحلاته: وكان ابن القيّم كثير الحجِّ والمجاورة، كما ذكر في بعض كتبه "وحج مرات كثيرةً، وجاور بمكة، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شـــدّة العبـــادة وكثرة الطواف أمرًا يُتعجب منه[3]" وهكذا كان ابن القيم دائم الاحتكـــاك ببيـــت الله الحرام مماّ جعله شديد العبادة وكثير الطواف ببيت الله، وقال عبد الفتاح لاشـــين: "وقد حج مرات عديدة، وأقام بمكّة مدّة منقطعا إلى الله عز وجلّ في بيته الحـــرام مطرحا بين يديه متفرغا للعبادة والتأليف، وقد ألّف كتابه مفتاح دار السعادة بمكة[4]" وهكذا كان بيت الله الحرام بمثابة مكتبة لابن القيم يؤلف فيها كتبه، كمـــا أصـــبح مسجدا للعبادة والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى، والأروع في هذا الأمر كله ومن محاسن الصُّدف أيضا أنّ ابن القيم ألّف كتابه مفتاح دار الســـعادة فـــي بيـــت الله الحرام، وهو الذي يمثل موضوع دراستنا وفي هذا الصدد يقول ابن القيم في كتابه

---

1 – أبو الفلاح عبد الحي بن عماد الحنبلي، شـــذرات الـــذهب، د ط. بيـــروت، د س، المكتـــب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، مجل 4، ص 168.

2– ابن كثير، البداية والنهاية، ص 270.

3– الحافظ زين الدين أبو الفرج ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلـــة، د ط. القـــاهرة: 1952 الـــدار المحمدية للطباعة والنشر والتوزيع، ج 2، ص 448.

4 – عبد الفتاح لاشين، ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القـــرآن، ط 1. بيـــروت: 1982، دار الرائد العربي للنشر والتوزيع، ص 43.

يصف مظهر افتقاره وابتهاله إلى ربه؛ حيث يقول: "إذ كان هذا من بعض النــزل والتحف التي فتح الله بها عليّ حين انقطاعي إليه عند بيته، وإلقائي نفســي ببابــه مسكينا ذليلا، وتعرضي لنفحاته في بيته وحوله بكرة وأصيلا، فما خاب من أنــزل به حوائجه، وعلق به آماله، وأصبح ببابه مقيما وبحماه نزيلا[1]" وهــذا يعنــي أنّ مفتاح دار السعادة، والذي يمثل موضوع دراستنا ألفّه رحمه في المكة المكرمة.

هـ- ثناء العلماء عليه: قال ابن كثير: "سمع الحديث، واشتغل بالعلم وبرع في علوم متعددة ولا سيما علم التفسير والحديث الأصلين، ولما عاد الشــيخُ تقــي الدين ابن تيمية من الدّيار المصرية في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة لازمه إلــى أن مات الشيخ، فأخذ عنه علمًا جمًّا مع ما سلف له من الاشتغال؛ فصار فريدًا في بابه في فنون كثيرة، مع كثرة الطَّلَب ليلا ونهارًا، وكثرة الابتهال، وكانت له طريقةٌ في الصلاة يطيلها جدًا ويمدُّ ركوعَه وسجودَه ويلومُه كثير من أصــحابه فــي بعــض الأحيان، فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك، وله من التّصانيف الكِبار والصِّغار شــيءٌ كثير، وكتَبَ بخطّه الحسنِ شيئًا كثيرًا[2]" وبالجملة كان قليلَ النظير فــي مجموعــه وأموره وأحواله، والغالب عليه الخيرُ والأخلاقُ الصالحةُ، وكان ذا عبادة وتَهَجّــد وطول صلاة إلى الغاية القصوى، وَتَألُّه ولهج بالذّكر، وشغف بالمحبــة والإنابــة والاستغفار، والافتقار إلى الله والانكسار له والإطراح بين يديه على عتبة عبوديته ويقول ابن رجب "لم أشاهد مثله في ذلك، ولا رأيت أوسع منه علمًا، ولا أعْــرَف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه، وليس هو المعصوم، ولكن لم أر فــي معناه مثله[3]" ومن هنا نستنتج أنّ ابن القيم على دراية بفنون كثيرة سواء في العلوم والتفسير والأصول في المنطوق والمفهوم.

---

1 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، تح علي بن حسن بن علي بن عبــد الحميــد الحلبــي الأثري، ط 1. القاهرة: 2004، دار ابن القيم للنشر والتوزيع، ج 1، ص 215- 216.

2 – إسماعيل ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، ص 270.

3- ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج 2، ص 447.

وقال السيوطي: "قد صنَّفَ، وناظر، واجتهد، وصار من الأئمة الكبار في التفسير والحديث، والفروع، والأصلين، والعربية[1]" وتفقه في المذهب، وبرع وأفتى ولازم الشيخ تقي الدين وأخذ عنه، وتفنَّن في علوم الإسلام، وكان عارفًا بالتفسير لا يجارى فيه وبأصول الدين، وإليه فيهما المنتهى، والحديث معانيه وفقهه، ودقائق الاستنباط منه لا يُلحق في ذلك، وبالفقه وأصوله وبالعربية، وله فيها اليَدُ الطولى وتعلم الكلام والنَّحو وغير ذلك، وكان عالمًا بعلم السّلوك، وكلام أهل التّصوف وإشاراتهم ودقائقهم، له في كل فَنّ من هذه الفنون اليد الطولى.

و- محنة وثبات: ولقد اعتقل ابن القيم مع ابن تيمية بالقلعة بدمشق (شعبان سنة 276 هـ) بعد أن أهين وطيف به مضروبا بالدرة، فلمّا مات ابن تيمية أفرج عنه وامتحن مرة أخرى بسبب فتاوى ابن تيمية، وحبس مرة لإنكاره شدّ الرحال إلى قبر الخليل.

ي – وفاته: وفي ليلة الخميس ثالث عشر من رجب سنة (751 هـ) وقت آذان العشاء توفي الشيخ الإمام العلامة شمس الدين محمد ابن أبي بكر بن أيوب الزرعي إمام الجوزية وابن قيّمها، وصلي عليه بعد صلاة الظهر من الغد بالجامع الأموي ودفن عند والدته بمقابر الباب الصغير.

---

1 – السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، د ط. بيروت، د س، المكتبة العصرية، ج 1، ص 62.

المبحث الثاني: ابن القيم وجهوده العلمية:

أ- **تلاميذه:** إنّ شهرة ابن القيم ومكانته العلمية، جعلت الفضلاء يعظّمونه ويتتلمذون عليه، ويكبون على الأخذ عنه "وقد كثر الآخذون عنه، وازدحمت مجالسه بالأئمة وتلقى عنه كثير من العلماء في حياة شيخه إلى أن مات[1]" وتخرّج به جماعة في أنواع الفنون، ومن أشهر تلامذته:

1- برهان الدين ابن الإمام؛

2- زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب (734هـ - 795هـ) صاحب طبقات الحنابلة وغيره؛

3- شمس الدين محمد بن عبد القادر النابلسي، صاحب مختصر طبقات الحنابلة لأبي يعلى؛

4- الحافظ بن كثير، وهو عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمسقي الشافعي، صاحب البداية والنهاية؛

5- ابن عبد الهادي: هو شمس الدين أبو عبد الله بن أحمد بن عبد الهادي بن يوسف بن محمد بن قدامة المقدسي ثم الصالحي، ولد في رجب سنة (705 هـ) ومن تصانيفه: تنقيح التحقيق في أحاديث التحقيق لابن الجوزي.

ومن تلاميذ القراءة عن كتبه، وليس التلقي المباشر محمد بن علي الشوكاني المتوفى سنة (1250 هـ).

ب- **شيوخه:** نشأ ابن القيم بدمشق، وهي على النحو الحضاري والثقافي الذي حددنا معالمه، وبها العديد من المدارس، ومن بينها الصدرية والجوزية اللتان كان له صلة بهما، ولمّا كان أبوه فقيهاً حنبلياً بارعاً في الفرائض، أخذ عنه ابنه هذا الفرع من فروع الفقه، وذلك بطبيعة الحال، وكما هي العادة بعد حفظ القرآن ومعرفة القراءة والكتابة وطرف من العلوم الأولية " وقد درس أيضا على أيدي

---

1 - أبو عبد الرحمن عبد المجيد جمعة الجزائري، القواعد الفقهية المستخرجة من كتاب إعلام الموقعين، ط 1. القاهرة، د س، دار ابن القيم للنشر والتوزيع، ص 75.

التقي سليمان أبي بكر بن عبد الدائم، والمطعم ابن الشيرازي وإسماعيل بن مكتوم وقرأ العربية على ابن أبي الفتح والمجد الأونسي، وقرأ الفقه على المجد الحراني وابن تيمية[1]" كما سمع من الشهاب النابلسي، وقرأ الأصول على الصفي الهندي وابن تيمية، كما تلقى ابن قيم الجوزية العلم على كثير من المشايخ ومنهم:

1 - قيم الجوزية والده؛

2 - المزي.

ومن بين شيوخه أبو محمد بن تيمية شقيق أبي العباس شيخ الإسلام ابن تيمية لازمه، وتفقه به، وقرأ عليه كثيرًا من الكتب، وبدأت ملازمته له سنة (712هـ) حتى توفي شيخ الإسلام سجينًا في قلعة دمشق (728 هـ) وقد أشار إليه في كتبه ونعته بقوله "شيخنا" بيد أنّ أكثر شيوخ ابن القيم أثرا فيه هو تقي الدين أبو العباس بن تيمية، وقد لازمه تلميذه أطول مدة ممكنة، وتعلق به، حتى وصف بأنه قد " غلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله، بل ينتصر له في جميع ذلك وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه، واعتقل مع ابن تيمية بالقلعة (بدمشق) بعد أن أهين وطيف به على جمل مضروبا بالدرة، فلمّا مات أفرج عنه وامتحن مرّة أخرى بسبب فتاوى ابن تيمية، وكانت مدة ملازمته لابن تيمية منذ عاد من مصر سنة (712 هـ) إلى أن مات[2]" أي أنّ هذه الملازمة استمرت إلى عام (728 هـ) أي نحو ستة عشر عاما.

ج- ابن القيم وصلته بابن تيمية: كان ابن تيمية من أشهر فقهاء الحنابلة، وأكبر مفكري الإسلام، وأغزرهم نتاجا "ولد بحرّان القريبة من دمشق سنة (661 هـ) وقد برع في علوم القرآن والحديث والفقه والكلام وغير ذلك، وكان يتمتع بذكاء مفرط وذاكرة قويّة مكنته من الحفظ، وسرعة الاستحضار والتوسع في

1 - ابن حجر، الدرر الكامنة، ص 12.

2 - المرجع نفسه، ص 21.

المعقول والمنقول والاطّلاع على مذاهب السلف والخلف[1]" وهو وإن كان حنبليا فقد كان لا يرى المذهب الحنبلي في بعض المسائل، حتى قال بعض العلمـاء: إنــه لا يتقيد بمذهب، وقد جلبت عليه حريته في الجدل والمناضرة، وحدّته فـي المناقشــة عداوة كثير من العلماء في عصره، وأدى ذلك إلى دخوله السجن مرات، ومع ذلك كان لا يتخلى عن مهاجمته لأصحاب البدع، وقد وافته المنية وهو في السجن عام (728 هــ) وكانت ملازمة ابن القيم لابن تيمية منــذ عــاد مــــن مصــر ســنة (712 هــ) إلى أن مات؛ أي أنّ صلته به بدأت حين بلــغ مــن العمــر إحــدى وعشرين سنة سنّ الفتوة والتفتح الناضج، واستمرت حتى بلغ ابن القيم نحو سبعة وثلاثين عاما وكثرة إشادة ابن القيم بابن تيمية تعبّر عن حــبّ التلميــذ وتقــديره للشيخ، كما أنها مظهر لأدب العلماء، ذلك أنّ من شُكْر العلم أن تقول: أفادني فلان كذا وكذا، يقول ابن القيم مثلا "وكثيرا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية –قدس الله روحه– يقول: إياك نعبد تدفع الرياء وإياك نستعين تدفع الكبرياء[2]" ومع هــذه السن، وما صاحبها من شهرة علمية؛ فإنّ ابن القيم يحكي أنه سأله عن مسألة فردّ ابن تيمية: "إنها عظيمة كبيرة، ولم يجب فيها بشيء، فمضى على ذلك زمن حتــى رأى ابن القيم في تفسير عبد بن حميد جوابها، فأرسل إلى ابن تيمية الكتاب، وهو في مجلسه الأخير، وعلمت على ذلك الموضع، وقلت للرسول: قل له هذا الموضع يشكّل عليه ولا يدرى ما هو...[3]" وهكذا تكون العلاقــة بينهمــا علاقــة تجــاوب فكري...أخذ وعطاء، كان له صداه في شهرتيهما جميعا، فلا يكاد يعرف تلميذ لابن تيمية برز في مجال الدعوة مثلما برز ابن القيم، ولا يكاد يعرف آثار شيوخ ابــن القيم أو من هم هؤلاء الشيوخ مثلما نعرف ابن تيمية وأثره "وابن القيم تلميذ ابــن

---

1 – عبد الفتاح لاشين، ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن، ص 18.

2 – ابن قيم الجوزية، التفسير القيم، تح محمد حامد الفقــي، د ط. بيــروت: 1988، دار الفكــر للطباعة والنشر والتوزيع، ص 84.

3 – المرجع نفسه، ص 264.

تيمية الذي قدمنا صورة من حياته المليئة بالنشاط العلمي والحركة غيــر العاديــة والمليئة بالمحن والمواقف القوية في أوقات الشدة التي تكشف عن معدن صــاحبها الأصيل، وهو محبّ لشيخه معجب بمواقفه، مدافع عن آرائه في أغلــب الأحيــان وقد شاركه بنفسه سراء حياته وضراءها[1]" ومن هنا نكتشف سرّ حبّ ابــن القــيم لشيخه ابن تيمية، ولقد قرأ عليه فنونًا كثيرة، وبدأت هذه الملازمة بتوبة ابــن قــيم الجوزية على يدي شيخه ابن تيمية، كما أشار إلى ذلك بقوله:

يَا قَومُ وَاللهِ العَظيم نَصيحَةٌ	من مُشفق وَأَخ لَكُم معوانُ
جَرَّبتُ هذاَ كُلّهُ وَوَقعْتُ فِي	تلكَ الشباك وَكُنتُ ذاَ طَيَرَان
حتىَّ أتاحَ لي الإلَهُ بفَضله	مَن لَيسَ تُجزيه يَدي وَلساني
أَرضٌ حَرّان فيا أَهلاً	بمن قَد جَاءَ من حرَان

وكان لهذه الملازمة أثرٌ بالغٌ في نفس ابن قيم الجوزية، فشارك شيخه فــي الذَّبِّ عن المنهج السلفي، وحمل رايتَه من بعده، وتحرر من كل تبعية لغير كتــاب الله وسُنة رسول الله ﷺ بفهم السلف الصالح، قال الشوكاني: "وليس له على غيــر الدليل مُعَوّل في الغالب، وقد يميل نادرًا إلى المذهب الذي نشأ عليــه، ولكنــه لا يتجاسر على الدَّفع في وجوه الأدلة بالمحامل البــاردة كمــا يفعلــه غيــرُه مــن المتمذهبين، بل لا بد له من مستند في ذلك، وغالب أبحاثه الإنصافُ والميــلُ مــع الدليل حيث مال، وعدم التعويل على القيل والقال، وإذا استوعب الكلام في بحــث وطوّل ذيولَه أتى بما لم يأت به غيره، وساق ما ينشرح له صدورُ الراغبين في أخذ مذاهبهم عن الدليل، وأظنّها سرت إليه بركةُ ملازمته لشيخه ابن تيمية في السَّــراء والضّراء والقيام معه في محنه، ومواساته بنفسه وطول تردده إليه[2]" وبالجملة فهو

1 – طاهر سليمان حمودة، ابن قيم الجوزية، جهوده في الدرس اللغوي، ص 14.

2 – الشوكاني محمد بن علي، البدر الطالع، ط 1. القاهرة، د س، دار السعــادة للنشر والتوزيع، ج 2، ص 143.

أحد من قام بنشر السُنة، وجعلها بينه وبين الآراء المحدثة أعظم جُنَّة، فرحمـــه الله وجزاه عن المسلمين خيرًا، ومع هذا كله فلم يكن ابن قيم الجوزية نسخةً من شيخه ابن تيمية، بل كان متفننًا في علوم شتى – باتفاق المتقدمين والمتأخرين– تدل على علوّ كعبه، ورسوخه في العلم، وكيف يكون ابن قيم الجوزية مُرَدِّدًا لصدى صوت شيخه ابن تيمية، وهو ينكرُ التقليدَ ويحاربُه بكلِّ ما أتي من حَوْل وقوَّة؟! وقد أخـــذ من ابن تيمية الخلق، وكان جريء الجنان...وكان ابن القيم إذا صلى الصبح جلس مكانه يذكر الله حتى يتعالى النهار ويقول: هذه غدوتي، لو لم أقعدها لسقطت قواي وفي هذا المعنى يتضح شأن القلب الذي يصبر لربه بالليل فيكون قيامه بالليل عونا على ما هو بصدده بالنهار، ومادة لقوته ظاهرا وباطنا.

وكان لقاؤه مع شيخ الإسلام نقطة تحول في حياته، وذلك أن ابن القيم كـــان في بداياته له ميل لعلوم السلوك والتصوّف وكلام الإشارات والرموز، وهذا ظاهر من بعض مؤلفاته التي ألفها قبل الالتقاء مع ابن تيمية أو قبل التأثر به، مثل كتاب طريق الهجرتين. فأدرك ابن تيمية بعين المربي الواعي أن هذا التلميذ ابـــن القـــيم مميزًا عن غيره ويُرجى منه خيرٌ كثير؛ فضمه إليه، وتفرغ له ابن القـــيم كـــذلك وأعطاه ابن تيمية خلاصة علمه وتجربته وآرائه، فحمل عنه ابن القيم علمًا جمًـــا كثيرًا، وهذا يوضح أهمية اختيار المربين قبل اختيار التلاميذ؛ لأنّ المربّي الواعي الفاهم يستطيع أن يتخير الأصلح والأنسب لحمل الفكرة والدعوة والخلافـــة علـــى العمل؛ ذلك لأنّ الدعوة عادة هي أقدم من الداعية وطابور الدعاة طويـــل، وممتـــد عبر الزمان من لدن الرسول ﷺ إلى قيام الساعة، وهكذا تحوّل ابن القيم من سلوك طريق التصوف إلى طريق السلف الصالح، وحمل علم شيخ الإسلام بعـــد موتـــه وقام بنشره والدفاع عنه، ونصر آرائه وأقواله الفقهية خاصة فتوى الطلاق التـــي أوذي بسببها ابن تيمية وابن القيم كثيرًا، حتى إنّ ابن تيمية مات في معتقل الشـــام بسبب تلك الفتوى، وكان معه في المعتقل ابن القيم ولم يفرج عنه إلا بعـــد وفـــاة شيخه ابن تيمية "وقد تعرض لمثل ما تعرض له شيخه ابن تيميـــة مـــن العـــذاب

والتكيّل، وفي مسائل قد تكون متشابهة؛ إذ مصدرها حرية الرأي والبحث الحر، إلا أنّ ابن تيمية تعرض للبطش والتنكيل أكثر من ابن القيم[1]" ورغم هـذا الاضـطهاد والابتلاء لم يمنع ابن القيم من مواصلة الدفاع عن آراء أستاذه ونشر مذهبه بـين الناس، حتى كان ابن القيم هو صاحب الفضل الأكبر في بقاء علم شـيخ الإسـلام على الساحة، حافظ عليه ونقله للأجيال التالية حتى ينتفع به المسلمون.

د- آثاره: إنّ الحديث عن آثاره متّصل الأسباب بالحديث عـن ثقافتـه؛ إذ يمكن عن طريق ما خلف منها أن نتعرف على عقليته ومنهجه الفكـري، فالآثـار مرآة صاحبها تحفظ صورته رغم تعاقب السنين، وتبين اتجاهاته وميادين فكره.

ويعدّ ابن القيم من المكثرين في التأليف، فكتبه كثيرة وجانب غير قليل منها مبسوط ضخم الحجم "ولكن ابن القيم لا يبلغ مبلغ شيخه ابن تيمية في كثرة التأليف فقد بلغ ابن تيمية في ذلك مبلغا كبيرا، لا يكاد يصل إلـى طبقتـه فـي المـؤلفين الإسلاميين جميعا إلا عدد قليل لا يجاوز أصابع اليد الواحدة[2]" وهكذا ضرب ابـن قيم الجوزية بحظ وافر في علوم شتى، يظهر هذا الأمر جَلِيًّا لمن استقصى كتبـه التي كانت للمتقين إمامًا، وأفاد منها الموافق والمخالف.

هـ- أشهر مؤلفاته مرتَّبة على حروف المعجم:

1- اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية (طبع بالهند)؛

2- أحكام أهل الذمة؛

3- أخبار النساء (طبع بالقاهرة عام 1307 هـ، 1319هـ)؛

4- إعلام الموقعين عن رب العالمين (طبع أكثر عن طبعة وقد رجعت إلى الطبعة التي حققها الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد -القاهرة- 1347 هـ- 1955هـ)؛

5- إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان (طبع بالقاهرة عام 1318 هـ)؛

---

1 - عبد الفتاح لاشين، ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن، ص 34.

2 - طاهر سليمان حمودة، ابن قيم الجوزية، جهوده في الدرس اللغوي، ص 42.

6- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (المطبعة الميمنية بالقاهرة 1320هـ)؛

7- أقسام القرآن (طبع بمكة عام 1321 هـ) وقد طبع بالقاهرة باسم: التبيان في أقسام القرآن – مطبعة حجازي 1352 هـ)؛

8- أمثال القرآن (ذكره ابن عماد)؛

9- بدائع الفوائد (أربعة أجزاء في مجلدين طبع بالقاهرة بإدارة الطباعة المنيرية طبعة بدون تاريخ)؛

10- بيان الدليل على استغناء المسابقة عن التحليل (ذكر ابن عماد أنه في مجلد واحد)؛

11- التحرير فيما يحل ويحرم من لباس الحرير (ذكر ابن عماد أنه في مجلد واحد)؛

12- تحفة المودود في أحكام المولود (ذكر ابن عماد أنه في مجلد واحد)؛

13- تفضيل مكة على المدينة (ذكر ابن عماد أنه في مجلد واحد)؛

14- تهذيب سنن أبي داود وإيضاح مشكلاته والكلام على ما فيه من الأحاديث المعلولة (ذكر ابن عماد أنه في مجلد واحد)؛

15- جلاء الإفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام (القاهرة – إدارة الطباعة المنيرية 1357 هـ)؛

16- جوابات عابدي الصلبان وأن ما هم عليه دين الشيطان (ذكره ابن عماد)؛

17- الجواب الكافي، لمن سأل عن الدواء الشافي (طبع بالقاهرة عام 1322 هـ وطبع غير هذه الطبعة)؛

18- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (القاهرة عام 1326 هـ)؛

19- حكم أغمام هلال رمضان (ذكر ابن عماد أنه في مجلد واحد)؛

20- حكم تارك الصلاة (القاهرة 1322 هـ)؛

21- الداء والدواء (ذكر ابن عماد أنه في مجلد واحد)؛

22- رفع اليدين في الصلاة (ذكر ابن عماد أنه في مجلد واحد)؛

23- الروح (مطبوع بحيدر آباد عام 1318 هـ - 1324 هـ)

24- روضة المحبين ونزهة المشتاقين(مطبعة الترقي-القاهرة 1349 هـ)؛

25- زاد المسافرين إلى منازل السعادة في هدى خاتم الأنبياء (ذكر ابن عماد أنه في مجلد واحد)؛

26- زاد المعاد في هدي خير العباد (المطبعة المصرية ومكتبتها- القاهرة)؛

27- الشافية الكافية في الانتصار للفرقة الناجية (مكتبة المنار- القاهرة 1322 هـ)؛

28- شرح أسماء الكتاب العزيز (ذكر ابن عماد أنه في مجلد واحد)؛

29- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (طبعة القاهرة عام 1323 هـ قامت بها مكتبة الرياض الحديثة)؛

30- الصراط المستقيم في أحكام أهل الجحيم (ذكر ابن عماد أنه مجلدان)؛

31- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (ذكر ابن عماد أنه مجلدان)؛

32- الطاعون (ذكر ابن عماد أنه مجلد)؛

33- الطب النبوي (المطبعة العلمية 1927 هـ)؛

34- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية (مطبعة المؤيد- القاهرة- 1317 هـ)؛

35- طريق الهجرتين (إدارة الطباعة المنيرية- القاهرة- 1357 هـ)؛

36- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (طبعة الإمام- القاهرة- 1972 هـ)؛

37- عقد محكم الأحقاد بين الكلم الطيب والعمل الصالح المرفوع إلى رب السماء (ذكر ابن عماد أنه مجلد)؛

38- الفتح القدسي والتحفة المكية (ذكره ابن عماد)؛

39- الفرق بين الخلة والمحبة ومناضرة الخليل لقومه (ذكر ابن عماد أنه مجلد)؛

40- الفروسية الشرعية النبوية (مطبعة الأنوار- القاهرة1941 م)؛

41- فضل العلم (ذكر ابن عماد أنه مجلد)؛

42- الفوائد (طبعة العاصمة- القاهرة)؛

43- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان (الطبعة الأولى مطبعة السعادة- القاهرة 1227 هـ)؛

44- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (الطبعة الأولى- مطبعة المنار بالقاهرة)؛

45- مسائل ابن تيمية التي جمعها ابن القيم (مكتبة المنار القاهرة 1322 هـ)؛

46- المسائل الطرابلسية (ذكر ابن عماد انه مجلدان)؛

47- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (نشر مكتبة المتنبي مطبعة الإمام بالقاهرة طبعة حديثة عام 1976 هـ)؛

48- فقد المنقول والمحك الممين بين المردود والمقبول (ذكر ابن عماد أنه مجلد)؛

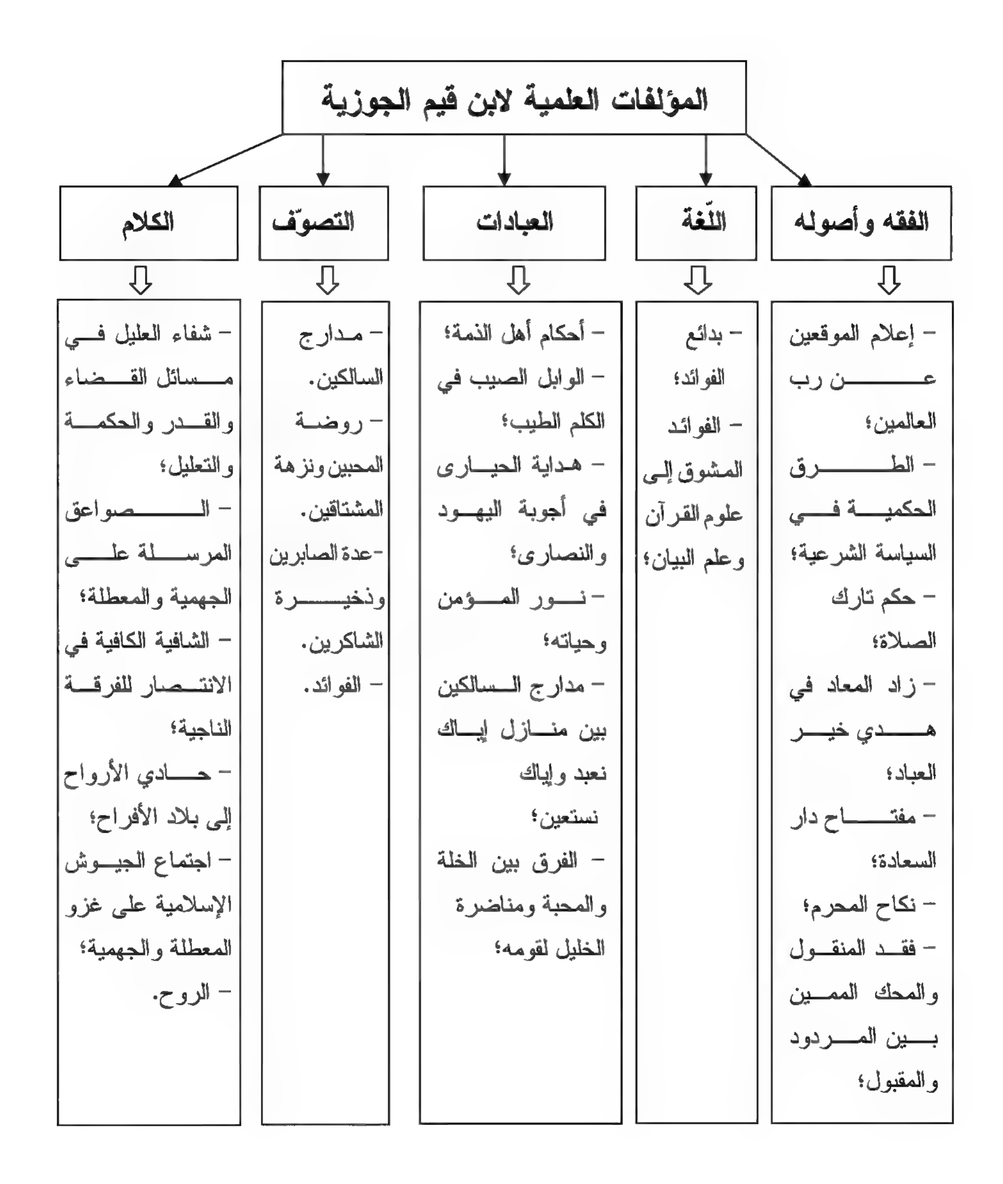
49- نكاح المحرم (ذكر ابن عماد أنه مجلد)؛

50- نور المؤمن وحياته (ذكر ابن عماد أنه مجلد)؛

51- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى (طبع بهامش كتاب الفارق بين المخلوق والخالق لعبد الرحمن زاده- القاهرة- مطبعة الموسوعات عام 1222 هـ)؛

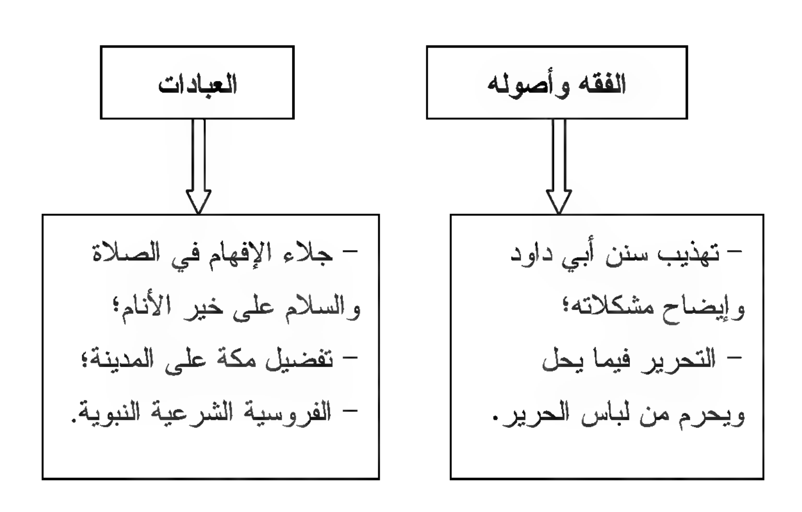
52- الوابل الصيب في الكلم الطيب (طبعة دار الزيني1378 هـ).

ويمكن أن نمثّل للتوجهات الكبرى لمؤلّفات ابن القيم بهذه الترسيمة:


المؤلفات العلمية لابن قيم الجوزية
الفقه وأصوله
اللّغة
العبادات
التصوّف
الكلام
- إعلام الموقعين عن رب العالمين؛
- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية؛
- حكم تارك الصلاة؛
- زاد المعاد في هدي خير العباد؛
- مفتاح دار السعادة؛
- نكاح المحرم؛
- فقد المنقول والمحك الممين بين المردود والمقبول؛
- بدائع الفوائد؛
- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان؛
- أحكام أهل الذمة؛
- الوابل الصيب في الكلم الطيب؛
- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى؛
- نور المؤمن وحياته؛
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين؛
- الفرق بين الخلة والمحبة ومناظرة الخليل لقومه؛
- مدارج السالكين.
- روضة المحبين ونزهة المشتاقين.
-عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين.
- الفوائد.
- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل؛
- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة؛
- الشافية الكافية في الانتصار للفرقة الناجية؛
- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح؛
- اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية؛
- الروح.



الفقه وأصوله
العبادات
التاريخ
- مسائل ابن تيمية التي جمعها ابن القيم؛
- الفروسية الشرعية النبوية؛
- الفتح القدسي والتحفة المكية؛
- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية؛
- إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان؛
- زاد المسافرين إلى منازل السعادة في هدى خاتم الأنبياء؛
- حكم أغمام هلال رمضان؛
- جوابات عابدي الصلبان؛
- تحفة المودود في أحكام المولود؛
- عقد محكم الأحقاد بين الكلم الطيب والعمل الصالح المرفوع إلى ربّ السماء؛
- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين؛
- طريق الهجرتين
- الطب النبوي؛
- الطاعون؛
- الصراط المستقيم في أحكام أهل الجحيم؛
- شرح أسماء الكتاب العزيز؛
- رفع اليدين في الصلاة؛
- الداء والدواء؛
- الجواب الكافي؛
- أمثال القرآن؛
- أقسام القرآن؛
- أخبار النساء؛
- المسائل الطرابلسية.



ويعدّ ابن القيّم من المكثرين في التأليف، فصنّف في الميادين التي بيّنا دراسته لها وكانت غالب عنايته منصرفة إلى الفقه وأصوله والعبادات والتصوف وما يتصل بالتوحيد وعلم الكلام، وألف في اللغة كتابا ممتازا وهو بدائع الفوائد وإذا كان من المصنفات ما يتناول الدين في جانبه العقائدي كما فعل المتكلمون ومن الكُتّاب ما يتناول العبادات، ومنهم من يتناول المعاملات أو هما معا كما فعل الفقهاء، وتناولت المتصوفة الجانب النفسي أو الوجداني في النصوص الدينية فإنّنا نرى أنّ مؤلفات ابن القيم تُعبّر عن قمّة من قمم الفكر العربي الإسلامي حين تجمع بين هذه العلوم، ولقد كانت هذه الكثرة من المؤلفات سببا في حيرة بعض الباحثين؛ إذ لم تجد مَن ينفض عنها غبار الزمن الطويل وينشرها كاملة.

ذلكم إذن ما يفوق الخمسين كتابا، وهذه المصنفات تمثّل وحدة الثقافة الإسلامية.



الفصـــل الثانـــــي:

ابن القيّم ومفتاح دار السعادة

المبحث الأول: مفتاح دار السعادة:

أهميته ومنهجه

قد يصعب على الباحث الموّازنة أو المُفاضلة بين مُؤلّفات عالم ما ومصنّفاته فكيف إذا كانت هذه المؤلّفات لعالم موسوعي تتنافس مؤلفاته فيما بينها أيّها أعلى وأغلى وأحلى، وهذا الكتاب الذي بين أيدينا من أدلّ الشواهد على ذلك وأوضحها فهو كتاب شامل لكثير من المعارف العلمية، والفوائد الحديثية والفقهية وغير ذلك... ولمعرفة ذلك أعقد هذا المبحث بالمقاطع التالية:

1- حول اسم الكتاب واستمداده:

أ- نسبة الكتاب إلى ابن قيم الجوزية: اشتهر كتاب (مفتاح دار السعادة) بنسبته إلى الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله، وكان أهل العلم ينقلون عنه وينسبونه إليه، مثل السيوطي في (شرح سنن النسائي، ج 3، ص: 141) والزبيدي في (شرح الإحياء، ج 1، ص: 187)...

وكان ابن القيم نفسه قد عزا إليه- ناسبا إيّاه لنفسه- في عدد من مؤلفاته، كما في (المدارج، ج 1، ص 91 / ج 3، ص: 490) و(زاد المعاد، ج 3، ص: 114) ... وأنّ سائر من ترجم للمؤلف ذكر هذا الكتاب من تواليفه؛ كابن رجب في (ذيل طبقات الحنابلة، ج 2، ص: 450) وابن حجر في (الدرر الكامنة ج 2، ص: 271) ...

ب- تسميته بلفظ (مفتاح دار السعادة): وهذا ما أشار إليه الإمام ابن القيم حيث **قال في الجزء الأول، ص: 214** "... وسميته مفتاح دار السعادة، ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة[1] "إنّما سمى ابن القيم كتابه ب (مفتاح دار السعادة) على عادته في إبداع أسامي مؤلفاته؛ لتدفق صدره ببثّ ما ألهم الفتّاح عليه من النعمة في تدبّر القرآن الكريم، والغوص في بحر الدين والفقه والشريعة.

وإذا تأملنا كلمات هذا العنوان، رأينا أنّ لها في اللغة معان، وهي كالتالي:

---

1 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 271.

* **مفتاح:** ورد في معجم الوسيط: " فتح: بين الخصمين فتحا قضى، وفي التنزيل العزيز: ﴿ **ربّنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق**﴾ وعليه هداه وأرشده، يقال فتح على القارئ، لقّنه ما نسيه فقرأه وهيأ له سبل الخير، المفتاح: آلة الفتح، (ج) مفاتيح ومفاتح، وفي التنزيل العزيز: ﴿**وعنده مفاتح الغيب**﴾[1]"

* **دار:** ورد في المعجم الوسيط: " الدار: يقال رزق دار دائم لا ينقطع[2]"

*** السعادة:** ورد في المعجم الوسيط: "السعادة معاونة الله للإنسان على نيل الخير، وتضاد الشقاوة[3]" وهذه التسمية سليمة تنتظم موضوع الكتاب ومادته، فهذا الكتاب حقا يمثل مفتاح دار السعادة، والذي كان مقصوده تنبيه القلب من رقدته بالإشارة إلى شيء من بعض آياته، وأحسن ما أنفقت فيه الأنفاس التفكر في آيات الله وعجائب صنعه، والانتقال منها إلى تعلّق القلب، والهمّة به دون شيء من مخلوقاته، ولمّا كان هذا العهد الكريم والصراط المستقيم والنبأ العظيم لا يوصل إليه أبدا إلا من باب العلم والإرادة؛ فالإرادة باب الوصول إليه، والعلم مفتاح ذلك الباب المتوقف فتحه عليه، فحُقّ على من كان في سعادة نفسه ساعيا، وكان قلبه حيّا على الله واعيا، أن يجعل العلم والإرادة مدار أقواله وأعماله، وأن يُصيّرها آخيّته، التي إليها مفزعه في حياته ومآله فلا جرم كان وضع هذا الكتاب مؤسسا على هاتين القاعدتين؛ إذ هما أفضل ما يكتسبه العبد في هذه الدار.

2- موضوعه: قال ابن القيم في الجزء الثاني ص: 67: "التفكّر والتّذكّر أصل الهدى والصّلاح، وهما قطبا السّعادة، ولهذا وسّعنا الكلام في الفكر في هذا الوجه، لعظم المنفعة وشدة الحاجة إليه، قال الحسن: ما زال أهل العلم يعودون بالتّذكّر على التّفكّر وبالتّفكّر على التّذكّر، ويناطقون القلوب حتى نطقت؛ فإذا لها أسماع وأبصار، فاعلم أنّ التفكر طلب القلب ما ليس بحاصل من العلوم من أمر

1- المعجم الوسيط، تح مجمع اللغة العربية، ط 3. القاهرة: 1985 ج 3، مادة فتح.

2 - المرجع نفسه، ج 1، مادة دار.

3 - المرجع نفسه، ج 2، مادة سعد.

هو حاصل منها، هذا حقيقته فإنّه لو لم يكن ثَمَّ مُوَّادٌ تكون موردا للفكر استحال الفكر؛ لأنّ الفكر بغير متعلق متفكر فيه محال، وتلك المواد هي الأمور الحاصلة ولو كان المطلوب بها حاصلا عنده لم يتفكّر فيه، فإذا عرف هذا؛ فالمتفكّر ينتقل من المقامات والمبادئ التي عنده إلى المطلوب الذي يريده، فإذا ظفر به وتحصّل له تذكّر به وأبصر مواقع الفعل والترك، وما ينبغي إيثاره وما ينبغي اجتنابه فالتذكر هو مقصود التفكر وثمرته؛ فإذا تذكر عاد بتذكره على تفكره فاستخرج ما لم يكن حاصلا عنده، فهو لا يزال يكرر بتفكره على تذكره، وبتذكره على تفكره مادام عاقلا؛ لأنّ العلم والإرادة لا يقفان على حدّ، بل هو دائما سائر بين العلم والإرادة، وإذا عرفت معنى كون آيات الرب تبارك وتعالى تبصرة وذكرى يتبصر بها من عمى القلب، ويتذكر بها من غفلته، فإنّ المضاد للعلم إما عمى القلب، وزواله بالتبصر وإما غفلته، وزواله بالتذكر، والمقصود تنبيه القلب من رقدته بالإشارة إلى شيء من بعض آيات الله، ولو ذهبنا نتتبع ذلك لنفذ الزمان، ولم نحط بتفصيل واحدة من آياته على التمام، ولكن ما لا يدرك جملة لا يترك جملة وأحسن ما أنفقت فيه الأنفاس التفكر في آيات الله وعجائب صنعه، والانتقال منها إلى تعلق القلب والهمّة به دون شيء من مخلوقاته، **فلذلك عقدنا هذا الكتاب على هذين الأصلين، إذ هما أفضل ما يكتسبه العبد في هذه الدار**... فلا جرم كان وضع هذا الكتاب مؤسسا على هاتين القاعدتين، ومقصوده التعريف بشرف هذين الأصلين وسمّيته "**مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة**..."[1]

ويظهر جلياً من خلال هذه المقاطع إسهاب ابن القيم في حديثه عن فضل العلم والعلماء، والمتصفّح لهذا الكتاب يلاحظ أنهّ أكثر ما شغل صفحاته، فالتبصرة: التعقل، والذكرى: التذكر، والفكر باب ذلك ومدخله، فإذا فكر تبصر، وإذا تبصر تذكر، وكمال كل إنسان إنّما يتم بهذين النوعين: همة ترقيه، وعلم يبصره ويهديه فإنّ مراتب السعادة والفلاح إنما تفوت العبد من هاتين الجهتين، أو من إحداهما، إما

1 - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 67.

أن لا يكون له علم بها فلا يتحرك في طلبها، أو يكون عالما بها ولا تنهض همتــه إليها، فلا يزال في حضيض طبعه محبوسا، وقلبه عن كماله الذي خلق له مصدودا منكوسا، وقد أسام نفسه مع الأنعام راعيا مع الهمل، واســتطاب لقيمــات الراحــة والبطالة، واستلان فراش العجز والكسل، لا كمن رفع له علم، فشمر إليه، وبورك له في تفرده في طريق طلبه، فلزمه واستقام عليه، قد أبت غلبات شوقه إلا الهجرة إلى الله ورسوله، ومقتت نفسه الرفقاء إلا ابن سبيل يرافقه في سبيله، فهذا هو إذن مضمون هذه التحفة.

3– منهج المؤلف في كتابه: ولماّ بنى المؤلف كتابه علــى أصــلي العلــم والإرادة وما لازمهما من موضوع التّفكّر والتّذكّر أفاض كثيرا في الحديث عنهمــا فأداه ذلك إلى طرق موضوعات كثيرة، **فقال في الجزء الثاني مــن الكتــاب ص: 182** بعد استطراده حول مسألة الحكمة "... وهذا فصل معتــرض، وهــو أنفــع فصول الكتاب، ولولا الإطالة لوسّعنا فيه المقال، وأكثرنا فيه من الشواهد والأمثال ولقد فتح الله الكريم فيه الباب وأرشد فيه إلى الصواب، وهو المرجو لتمام نعمتــه ولا قوة إلا بالله العلي العظيم[1] " وهذه طريقة ابن القيم في معالجة المسائل الدينيــة والفقهية؛ فهو كثير الاستطراد، والانتقال من موضوع إلى موضوع آخر، ومعنــى كلامه هذا أنّ ابن القيم تطرّق إلى مواضيع كثيرة في كتابه، ومن بينهــا الحكمــة والتي تُعتبر من أهم فصول الكتاب، ولولا الإطالة لوسع فيه المقال مع كثرة الأمثلة والشواهد، حتى لا يدع القارئ تائها بين المسائل الشائكة التي لا يعرف لها حلولا.

وقال في الجزء الثاني من الكتاب ص: 245 بعد بيان منّة الله على خلقــه: "فتدبر هذا الفصل فإنّه من الكنوز في هذا الكتاب، وهو حقيق بــأن تثنــى عليــه الخناصر ولله الحمد والمنة[2]" وهو كذلك، ولذلك أفاض ابن القيم كثيرا في بيان منة الله على خلقه. والمقصود أنّ الله سبحانه أعطى العبد من هذه المعارف وطرقهــا

1 - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 182.

2 – المرجع نفسه، ص 245.

ويسرها عليه ما لم يعطه من غيرها لعظم حاجته في معاشه ومعاده، ثمّ وضع في العقل من الإقرار بحسن شرعه ودينه الذي هو ظله في أرضه وعدله بين عباده...

وقال في خاتمة كتابه: "وليكن هذا آخر الكتاب، وقد جلبت إليك فيه نفائس في مثلها يتنافس المتنافسون، وجليت عليك فيه عرائس إلى مثلهن بادر الخاطبون: فإن شئت اقتبست منه معرفة العلم وفضله، وشدة الحاجة إليه وشرفه، وشرف أهله وعظم موقعه في الدارين.

وإن شئت اقتبست منه معرفة إثبات الصانع بطرق واضحات جليات، تلج القلوب بغير استئذان، ومعرفة حكمته في خلقه وأمره.

وإن شئت اقتبست منه معرفة قدر الشريعة، وشدة الحاجة إليها، ومعرفة جلالتها وحكمتها.

وإن شئت اقتبست منه معرفة النبوة وشدة الحاجة إليها، بل وضرورة الوجود إليها وأنّه يستحيل من أحكم الحاكمين أن يخلي العالم عنها.

وإن شئت اقتبست معرفة الرد على المنجمين القائلين بالأحكام بأبلغ طرق الرد من نفس صناعتهم وعلمهم، وإلزامهم بالالزامات المفحمة التي لا جواب لهم عنها، وإبداء تناقضهم في صناعتهم، وفضائحهم وكذبهم على الخلق والأمر.

وإن شئت اقتبست منه معرفة ما فطر الله عليه العقول من تحسين الحسن وتقبيح القبيح، وإنّ ذلك أمر عقلي فطري بالأدلة والبراهين التي اشتمل عليها هذا الكتاب، ولا توجد في غيره.

وإن شئت اقتبست منه معرفة الطيرة والفأل والزجر، والفرق بين صحيح ذلك وباطله ومعرفة مراتب هذه في الشريعة والقدر...[1]" ويظهر جلياً من هذه الفقرات أنّ هذا الكتاب حافل بأصول نافعة جامعة، مماّ تكمل به النفس البشرية وتنال بها العبد سعادته في معاشه ومعاده، وهو كتاب نفيس فيه من بدائع الفوائد وفيه من البحوث ما يستقصي كل علم إلى فنه؛ إذ فيه فوائد مرسلة يقتبس من

1- ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 3، ص388– 389.

مجموعها معرفة العلم وفضله، ومعرفة إثبات الصانع، ومعرفة قدر الشريعة ومعرفة النبوة ... وشدة الحاجة إلى هذه المذكورات، ومعرفة أصول نافعة جامعة مماّ تكمل به النفس البشرية، وإذ الأمر كذلك؛ فإنّ هذا الكتاب يمثّل لجنة علمية متكاملة، فيها المحدّث والفقيه والمفسّر والمتكلّم والأصوليّ واللّغوي والفيلسوف والطبيب.... وما ذاك إلا لتنوع فنونه وتعدد معارفه واختلاف بحوثه...

4- **طريقته في الاستدلال والبحث والترجيح:** تميّز منهج ابن القيّم في مفتاح دار السعادة بما يلي:

1- **الاستدلال: هذه** أهم ميزة يتسم بها منهج الإمام ابن القيم، فقد غلبت على جميع أبحاثه، فقد كان لا يعرض المسائل عارية عن الدلائل، يترك القارئ تائها في وسط المسائل الشائكة، والآراء المختلفة، وإنما يثلج صدره ويقر عينه، بما يسوق إليه من الأدلة الباهرة والحجج الظاهرة، والنصوص القاهرة، ويجعله يقبل الحكم الشرعي، عن علم ودراية.

أ – **ترتيب الأدلة:** فكان أولا يعتمد على نصوص الكتاب والسنة ويبرر أدلتها، وكان يتحرى ما صح من الأحاديث.

ب- **حشد الأدلة:** كان رحمه الله إذا بحث مسألة أو ناقش رأيا جر مجموعة من الحجج، وأتى من الكتاب والسنة والآثار بما خضعت له الرقاب، وذلت له الصعاب وكشف له النقاب، وقد ساعده على ذلك حافظته العجيبة وذاكرته المفرطة التي كانت تفيض بنصوص الكتاب والسنة.

2- **الاستشهاد بالشعر:** وهذه الخصيصة بادية على صفحات كتاب مفتاح دار السعادة فلا تكاد تقف على موضع إلا تجد شعرا رائقا، ونظما فائقا، ممّا يدلّ على ذاكرته العجيبة، في استحضاره من الشعر ما يلائم الموضوع الذي يخوض فيه، والله لا يوفق إلى ذلك إلا فحول الأدباء.

3- حسن الترتيب والسياق: تميزت أبحاثه بحسن الترتيب، وجودة التبويب واتساق الأفكار وإحكام العبارة، وحسن السياق، وكأنها لؤلؤ منثور قد جمع في قلادة.

4- أسلوب الحوار: استخدم أسلوب الحوار في غالب مناقشته لخصومه حتى يعطي حيوية أكثر للموضوع، ويجعل القارئ يتابعه باهتمام وتركيز، ويشعر وكأنه حضر مجلس مناضرة، وقد تقابل الخصمان، فأدلى كل منهما بحجته.

5- استشهاده بأقوال الأئمة: لما كان الإمام ابن القيم يصبو إلى تحقيق أهدافه المتمثلة في الدعوة إلى التمسك بالكتاب والسنة، وما كان عليه سلف الأمة والتحرر من قيود التقليد الأعمى، ونراه إذا بحث مسألة يدعّم رأيه بالإكثار من الاستشهاد بأقوال الصحابة والتابعين، والإفاضة في النقل عن الأئمة المجتهدين ليبرز منهج السلف في المسألة ويظهر رأيهم في القضية.

6- عنايته بالجانب الروحي: إننا نستشف هذه الخصيصة من خلال أبحاثه التي مزجها بأعمال القلوب، وأحوالها: كمحبة الله، وخشيته، ورجاء رحمته والافتقار إليه والتضرع إليه...

5- حول تقسيم الكتاب: ذكر غير واحد من المعتنين بهذا الكتاب، دراسة وتحقيقا واختصارا أنّ كتاب المفتاح قسمان: وهذا أقرب إلى الصحيح، إن لم نقل هو الأصح وهو ما صرّح به مصنفه رحمه الله في مواطن كثيرة؛ **فقال في الجزء الثاني ص: 309** بعد كلام: "وقد ذكرنا فصلا مختصرا في دلالة خلقه على وحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله وأسمائه الحسنى، وأردنا أن نختم به القسم الأول من الكتاب، ثمّ رأينا أن نتبعه فصلا في دلالة دينه وشرعه على وحدانيته وعلمه وحكمته ورحمته وسائر صفات كماله...[1]" وهذا يؤكد أنّ الكتاب في جزأين فقد ختم القسم الأول من الكتاب بفصل في دلالة خلقه على وحدانية الله، وسيتبعه بفصل في دلالة دينه وشرعه في القسم الثاني من الكتاب.

---

1 - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 309- 310.

وقال في الجزء الثاني ص: 265 بعد أن ذكر وجوب ابتهال العبد لربّه وتضرّعه على بابه: "وعسى أن يجيئك في القسم الثاني من الكتاب ما تقر به عينك إن شاء الله[1]" وهذا أكثر دلالة على ما ذكر آنفا.

فما هي حقيقة تقسيم الكتاب؟ وما هو مقداره الأساس؟

قال فضيلة الشيخ الكبير بكر بن عبد الله أبو زيد في كتابه القيم (ابن القيم حياته وآثاره، ص: 301): "والكتاب يتكوّن من قسمين في مجلّد، وقد أبرز في طبعته الأولى كذلك، أمّا في طبعة الأستاذ محمود حسن الربيع، فبدون تجزئة. وتجزئة الكتاب إلى قسمين هو الذي يوافق صنيع المؤلف رحمه الله تعالى، وقد أشار في مواضع منه إلى أنّ كتابه هذا يتكون من قسمين[2]" وقد وفى ابن القيم بذلك، فتكون صورة الكتاب على ما يأتي:

أولا: مقدّمة حافلة أقامها على حكمة الله تعالى في قصة آدم عليه السلام، فقد تحدّث المؤلف فيه بإسهاب عن موضوعين رئيسيين هما كيف أزل الشيطان –لعنه الله– آدم وحواء، وكيف أهبطهما الله إلى الأرض، ثم استطرد فيها بتحرير الخلاف حول الجنة التي اهبط منها، ثمّ بيّن طريقته في كتابه، وأنّه بناه على أصلين (الجزء1، ص: 103– 218).

ثانيا: الأصل الأول من موضوع الكتاب في العلم؛ حيث تحدّث ابن القيم عن فضل العلم والعلماء، وهما أكثر ما شغل صفحات الكتاب، وفصّل في مبحث التّفكّر والتّذكّر بذكر حكمة التشريع، وحكمته عزّ وجلّ في مخلوقاته (الجزء1 ص: 219 – 409) وهذا معظم الكتاب.

---

1 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 265.

2 – بكر بن عبد الله أبو زيد، ابن القيم حياته وآثاره، ط 1. المملكة العربية السعودية، د س، دار العاصمة للنشر والتوزيع، ص 301.

ثالثا: الأصل الثاني في الإرادة، وتضمّن ذلك البحث موضوع الحسن والقبح العقليين إلى آخر الكتاب (الجزء 2، ص: 419 إلى الجزء 3، ص: 390) مع ما لابن القيم رحمه الله خلال ذلك من استطرادات.

وبعد هذا العرض المفصّل لأهمّ فصول الكتاب، يظهر لنا جليّا موضوعه فقد جاء الكتاب في جزأين، تحدّث فيه المؤلّف بإسهاب عن موضوعين رئيسيين هما: كيف أزل الشيطان –لعنه الله– آدم وحواء، وكيف أهبطهما الله إلى الأرض وكيف كانت غواية الشيطان لهما، وكيف كانت النتيجة، وكيف فتح الله باب التّوبة إليه تبارك وتعالى، والموضوع الآخر فضل العلم والعلماء، هذان الموضوعان أكثر ما شغل صفحات الكتاب، وهناك مواضيع أخرى، ولقد خصّص ابن القيم في الكتاب للوعظ والتذكير مجالاً رحباً، ومداداً سائلاً، وصفحات مليئة، ثم ذكر دواعي العقل والعلم، فإنّ الله سبحانه وتعالى خلق فيه–الإنسان– العقل والشهوة ونصبهما داعيين بمقتضياتهما، ليتمّ مراده، ويظهر لعباده عزّته في حكمته وجبروته ورحمته وبرّه ولطفه في سلطانه وملكه... الكتاب بالجملة أبدع المؤلف في إخراجه رحمه الله رحمة واسعة.

المبحث الثاني: أهميّة الكتاب وقيمته العلميّة:

1- القيمة العلميّة للكتاب: على الرّغم من مراجعتي لكلام أهل العلم حول هذا الكتاب لم أجد منهم إلا الثناء العطر، والذكر الطيب، وتعظيم المؤلف، وتبجيل مباحثه ومعارفه المطروقة في كتابه هذا، وحقّ لهم ذلك؛ لأنّ الإمام ابن القيم معروف عند القاصي والداني بجودة البحث، وقوّة الاستدلال، ومتانة العبارة وجزالة اللفظ وضبط المعاني، وسلاسة الإنشاء.

وكتاب مفتاح دار السعادة الذي بين أيدينا ذو قيمة علمية نفيسة، تتجلى هذه القيمة فيما يلي:

– لقد بحث الإمام ابن القيم بعض المسائل الفقهية الشائكة، فذكر أقوال الأئمة وآراء المذاهب، وكشف عن القول الراجح فيها، مماّ يسهل على طلبة العلم عموما وأهل العلم خصوصا الوقوف على مآخذ الأقوال، والصواب منها.

– أفاض ابن القيم في بحث بعض المسائل الأصولية المهمة كمسألة الإيمان وقاعدته والتفكر في خلق الله، والمسائل العلمية كالنطفة وأحوالها، والنجوم وكثرتها وعجبها... وناقش آراء الأصوليين فيها، ممّا يجعل كتاب "مفتاح دار السعادة" مرجعا أساسيا في علم أصول الفقه.

– احتفل الكتاب بالفوائد الأصولية والقواعد الفقهية، مع تحرير مسائلها وتخريج فروعها من مختلف أبواب الفقه.

– ساهم الإمام ابن القيم بقسط وافر في تأسيس بعض القواعد الفقهية والضوابط الفرعية وتأصيلها، فتضاف إلى صرح القواعد الشامخ في الفقه الإسلامي.

– خصّص ابن القيم في الكتاب للوعظ والتذكير مجالاً رحباً، ومداداً سائلاً وصفحات مليئة، ثمّ ذكر دواعي العقل والعلم، فإنّ الله سبحانه وتعالى خلق فيه- الإنسان- العقل والشهوة ونصبهما داعيين بمقتضياتهما، ليتم مراده، ويظهر لعباده عزته في حكمته وجبروته ورحمته وبره ولطفه في سلطانه وملكه...

2- المآخذ على الكتاب: وهذا كلّه لا يمنع من توجيه نقد، أو بيان خطأ، أو كشف وهم، فكما يقال: "**أَبَى اللهُ أَن يتِم إلا كِتَابه**".

وهذه المقولة تصدق على كلّ كتاب، ومنها مفتاح دار السعادة؛ لأنّ مؤلفه بشر وهو عرضة للخطأ، والكمال لله وحده فالأمر كما قيل: "**كَفَى بِالمَرْءِ نَبْلاً أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهُ**" وإنّ أهمّ ما وجّه لمؤلفنا من نقد إنّما يتعلق بترتيب الكتاب؛ **فقال المؤلف في الجزء الثاني، ص: 44:** "ونحن نذكر هنا فصولا منثورة من هذا الباب مختصرة، وإن تضمّنت بعض التكرار، وإن كانت غير مرتبة، فلا ضير بالتكرار، وترك الترتيب في هذا المقام الذي هو من أهمّ فصول الكتاب، بل هو لبّ هذا القسم[1]" وهكذا يقر ابن القيم بنفسه أنّ فصول هذا الكتاب منثورة، وغير مرتبة كما يتخللها التكرار وترك الترتيب، ويقول أيضا في الجزء الثاني، ص: 200: "فلا تستطل هذا الفصل، وما فيه من نوع تكرار يشتمل على مزيد فائدة، فإنّ الحاجة إليه ماسة والمنفعة عظيمة[2]" وهذه ملاحظة أخرى وهي التكرار، وهي بارزة في مواضع كثيرة من مفتاح دار السعادة، وهكذا نرى ابن القيم يعترف بوجودها، معلّلا أن التكرار يشتمل على مزيد فائدة، ومنفعة عظيمة.

وهذا الشيء جعل حاجي خليفة في (كشف الظنون) يقول: "هو كتاب كبير الحجم وليس بمرتب[3]" فالكتاب (مفتاح دار السعادة) كما ذكرنا آنفا كتاب ضخم في مجلدين، وإلى جانب ضخامته؛ فهو كتاب غير مرتب باعتراف كثير من العلماء ومن بينهم حاجي خليفة.

وممّا يضاف إلى هذا الكتاب من نقد، استعمال ابن القيم مصطلحات فلسفية وكلامية غامضة، دون بيانها وشرحها، ممّا يعسّر على القارئ، وبخاصة في هذه

1- ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص44.

2 – المرجع نفسه، ص 200.

3 – حاجي خليفة، كشف الظنون، د ط. بيروت، د س، دار إحياء التراث العربي للنشر والتوزيع مجل 2، ص 1761.

العصور المتأخرة فهمها واستيعابها... وأمثلة على ذلك: **يقول ابن القيم:** " ... ثمّ إنّه سبحانه وتعالى، أعطى هذا المخلوق اللطيف الذي يحركه أضعف المخلوقات ويخرقه من الشدة والقوة والبأس، ما تقلق به الأجسام الصلبة القوية الممتنعة ويزعجها عن أماكنها ويفتتها ويحملها على متنه، فانظر إليه مع لطافته وخفته، إذا دخل في **الزّق** مثلا وامتلأ به ثم ...[1]" استعمل ابن القيم كلمة "**الزّق**" دون بيانها أو شرحها ممّا يعسر على القارئ فهمها.

وفي موضع آخر يقول ابن القيم: "ومن آياته سبحانه خلق الحيوان على اختلاف أصنافه وأجناسه ... ومنه ما جعل سلاحه المناقير كالنسر و**الرَّخَمِ** والغراب...[2]" استعمل ابن القيم كلمة "**الرَّخَم**" دون بيانها أو شرحها، وهي كلمة غريبة، لا يفهمها القارئ... إلى غير ذلك من الأمثلة.

فهذه بعض الملاحظات، وهي لا تحطّ من قيمة الكتاب، ولا تكدّر صفوه بل إنّها مغمورة في بحر محاسنه ومميزاته، وهذا كله لا ينقص من القيمة العلمية العالية التي تبوّأها هذا الكتاب الفرد في بابه ونهجه وأسلوبه.

---

1 - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 34.

2 – المرجع نفسه، ص 44.



البـــاب الثانـــي:

الدّراســـة التّطبيقيّــة:

خصائص لغة ابن قيّم الجوزية من خلال مفتاح دار السعادة

الفصـــــل الأول:

خصائص أسلوب ابن قيّم الجوزية

من خلال مفتاح دار السعـــادة

المبحث الأول: الاستطراد:

سنحاول في هذا الفصل أن نتناول أسلوب ابن القيم وخصائصه في مفتاح دار السعادة وسنحاول أيضا بيان أسلوبه في البحث؛ لأنّه من الضرورة بمكان؛ لأنّ تناوله يعدّ إكمالا لحديثنا عن منهجه، لارتباط الأسلوب بمنهج صاحبه، فهو طريقة صاحبه في التعبير والتفكير، وله دلالة على بعض خصائص المنهج، وللخصائص المنهجية أثر في الأسلوب أيضا فهي علاقة تأثير وتأثر، وقبل الولوج في هذا المبحث لا بأس أن نتطرق إلى مفهوم الاستطراد، فقد عرّفه الأستاذ الدكتور عبد المتعالي الصعيدي بقوله: " الاستطراد: ومنه الاستطراد، وهو الانتقال من معنى إلى معنى آخر متّصل لم يقصد بذكر الأول التوصل إلى ذكر الثاني[1]" ولقد عُرف ابن القيم بهذه الخاصية واشتهرت في أبحاثه، وله من هذه الميزة النصيب الوافر في عامة كتبه ومؤلفاته، فإنّه كثير الاستطراد لأدنى مناسبة يجدها، وأنّه قد يكون أنفع للناس من المسألة المبحوثة أصلا، وأمثلة الاستطراد في مفتاح دار السعادة كثيرة ومستفيضة، نذكر بعضا منها.

يقول ابن القيم: " ... وهذا فصل معترض، وهو أنفع فصول الكتاب، ولولا الإطالة لوسّعنا فيه المقال، وأكثرنا فيه من الشواهد والأمثال، ولقد فتح الله الكريم فيه الباب وأرشد فيه إلى الصواب، وهو من المرجوّ لتمام نعمته، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم[2]" فقد استطرد ابن القيم في هذا الموضع لما بنى كتابه على أصلي العلم والإرادة وما لازمهما من موضوع التفكر والتذكر، أفاض كثيرا، فأدّاه ذلك إلى طرق موضوعات شتىّ، قد تكون أنفع للناس من المسألة المبحوثة أصلا.

---

1 – عبد المتعالي الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، ط 1. القاهرة: 1999، مكتبة الآداب للنشر والتوزيع، ج 4، ص 21.

2 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 182.

وفي موضع آخر يقول ابن القيم: " فتدبر هذا الفصل، فإنّه من الكنوز في هذا الكتاب، وهو حقيق بأن تثنى عليه الخناصر، ولله الحمد والمنّة[1] " استطرد ابن القيم في هذا الموضع كثيرا بعد بيان منة الله على خلقه.

ويقول أيضا: " فهذا فصل معترض ذكرناه استطرادا للحكمة في خلق النخلة وهيئتها فلنرجع إليه[2]" فقبل أن يتحدث ابن القيم عن النخلة قد تطرق إلى مواضيع كثيرة، ومنها حكمة الله في خلق شجرة اليقطين والبطيخ والشجر... وبعدها تحدّث عن الحكمة الإلهية في موافقات أصناف الفواكه والثمار... إلى أن استطرد للحكمة في خلق النخلة وهيئتها، قد تكون أنفع للناس من المسألة المبحوثة أصلا.

ويقول أيضا: "وهذا باب عظيم من حكمة الله، يطّلع الناظر فيه على أسرار من أسرار التقدير، وتسليط العالم بعضهم على بعض، وتمكين الجناة والبغاة فسبحان من له في كلّ شيء حكمة بالغة وآية باهرة، حتىّ إنّ الحيوانات العادية على الناس في أموالهم وأرزاقهم وأبدانهم تعيش في خفارة ما كسبت أيديهم، ولولا ذلك لم يسلّط عليهم منها شيء، ولعلّ هذا الفصل الطردي أنفع لمتأمله من كثير من الفصول المتقدمة، فإنّه إذا أعطاه حقّه من النظر والفكر، عظم انتفاعه به جدا، والله الموفق[3]" ومعنى كلامه هذا أنّ هذا الكتاب يحتوي على أبواب وفصول تتفاوت في القدر والأهمية، فقد تكون بعض الفصول أو الأبواب أنفع من غيرها، ولو أعطاها المتأمل حقها في النظر والتأمل لكانت فائدته به عظيمة، ولو أنني أجدها غير ذلك فهي كلها مفيدة ونافعة لما تحمله في طياتها من علم ومعرفة، فهي شبيهة باللآليء التي تضمّ بعضها إلى بعض لتشكل عقدا فريدا من نوعه.

وفي موضع آخر يقول ابن القيم: "فالبيت الحرام قيام العالم، فلا يزال قياما ما دام هذا البيت محجوجا، فالحج هو خاصة الحنيفية ومعونة الصلاة، وسرّ قول

---

1 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 245.

2 – المرجع نفسه، ص 121.

3 – المرجع نفسه، ص 176.

العبد لا إله إلا الله، فإنه مؤسس على التوحيد المحض والمحبة الخالصة، وهو استزارة المحبوب لأحبابه، ودعوتهم إلى بيته ومحل كرامته، ولهذا إذا دخلوا في هذه العبادة، فشعارهم لبيك اللهم لبيك إجابة محبّ لدعوة حبيبه، ولهذا كان للتلبية موقع عند الله، وكلما أكثر العبد منها، كان أحب إلى ربه وأحظى، فهو لا يملك نفسه أن يقول: لبيك ... لبيك حتى ينقطع نفسه، وأما أسرار ما في هذه العبادة من الإحرام واجتناب العوائد وكشف الرأس، ونزع الثياب المعتادة، والطواف والوقوف بعرفة، ورمي الجمار وسائر شعائر الحج، فممّا شهدت بحسنه العقول السليمة والفطر المستقيمة، وعلمت بأن الذي شرع هذا لا حكمة فوق حكمته، وسنعود إن شاء الله إلى الكلام في ذلك في موضعه، أما الجهاد فناهيك به من عبادة هي سنام العبادات وذروتها، وهو المحكّ والدليل المفرق بين المحب والمدّعي، فالمحبّ قد بذل مهجته وماله لربّه وإلهه متقرّبا إليه ببذل أعزّ ما بحضرته...[1]" تطرق ابن القيم في هذه الفقرة إلى مواضيع شتى، استهلها بالحديث عن بيت الله الحرام، ثم انتقل إلى معنى آخر متصل، وهو الحديث عن أسرار العبادة، ثم استطرد قائلا: "وسنعود إن شاء الله إلى الكلام في ذلك في موضعه" ثمّ انتقل إلى معنى آخر، وهو الحديث عن الاجتهاد، وهذا الأخير ربما يكون أكثر أهمية من المواضيع السابقة فلذلك فضّل ابن القيم الخوض فيه، على أنّه يعود إلى ما سبق ذكره في موضعه.

ويقول ابن القيم: "... وانظر كيف دلّ العيانُ والحسّ والوجود على حكمة الرّب تعالى، وعلى صدق رسله فيما أخبروا به من الجنة والنار، فتأمّل كيف قاد النظر في حكمة الله تعالى إلى شهادة العقول والفطر بصدق رسله، وأنّ ما أخبروا به تفصيلا يدلّ عليه العقل مجملا، فأين هذا من مقام من أدّاه علمه إلى المعارضة بين ما جاءت به الرسل، وبين شواهد العقل وأدلته، ولكن تلك العقول كادها باريها ووكّلها إلى أنفسها فحلّت بها عساكر الخذلان من كل جانب، وحسبك بهذا الفصل وعظيم منفعته من هذا الكتاب، والله المحمود المسؤول تمام نعمته، فهذه كلمات

---

1 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 324.

مختصرة نافعة في مسألة إيلام الأطفال، لعلك لا تظفر بها في أكثر الكتب، فارجع الآن إلى نفسك، وفكّر في هذه الأفعال الطبيعية التي جُعلت في الإنسان، وما فيها من الحكمة والمنفعة، وما جعل لكل واحد منها في الطبع المجرّد والداعي الذي يقتضيه ويستحثّه ... ثم انظر إلى ما أعطيه من القوى المختلفة التي بها قوامه فأعطي القوة الجاذبة الطالبة المستحثة التي تقتضي معلومها من الغذاء، وتورده على الأعضاء بحسب قبولها، ثمّ أعطي القوة الممسكة التي تمسك الطعام، وتحبسه ريثما تنضجه الطبيعة، وتحكم طبخه وتهيؤه لمصارفه، وتبعثه لمستحقّه، فمن أعطاك ...؟ ومن جعلها...؟ ومن أعطاها...؟ ومن...؟ [1]" تحدث ابن القيم في هذه الفقرة على حكمة الرّب تعالى، وعلى صدق رسله فيما أخبروا به من الجنة والنار ثم استطرد قائلا: "وحسبك بهذا الفصل وعظيم منفعته من هذا الكتاب والله المحمود المسؤول تمام نعمته، فهذه كلمات مختصرة نافعة في مسألة إيلام الأطفال، لعلك لا تظفر بها في أكثر الكتب" ثم يخرج عن موضوعه الأصلي إلى موضوع آخر.

1 - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 232 - 233.

المبحث الثاني: أسلوب الحــوار:

يستخدم ابن القيم أسلوب الحوار في غالب مناقشاته لخصومه، وقــد عــرّف الدكتور أحمد العمري الحوار قائلا: "والحوار، في معناه العام: خطاب (أو تخاطــب) يطلب الإقناع بقضية أو فعل، وفي معناه الخاص: كل خطاب يتوخى تجاوبَ متلــقٍ مُعين ويأخذ رده بعين الاعتبار، من أجل تكوين موقف في نقطة غير معينة سلفا بين المتحاورين، قريبة من هذا الطرف أو ذاك، أو في منتصف الطريق بينهما، صورتُه المُثلى مناقشةٌ بين طرفين أو أكثر[1]" والحوار خاصية أخرى من خصائص أســلوب ابن القيم، وهي ميزة بارزة في مفتاح دار السّعادة، فقد كان ابن القيم يبحــث بعــض المسائل في أكثر من موضع، ومن الأمثلة على ذلك: **يقول ابن القيم:** " وكم للطّفــل من منفعة ومصلحة فيما تسمعه من بكائه وصراخه؛ فإذا كانت هذه الحكمة في البكاء الذي سببه ورود الألم والمؤذي، وأنت لا تعرفها ولا تكاد تخطر ببالك، فهكذا إيــلام الأطفال فيه وفي أسبابه وعواقبه الحميدة من الحكم ما قد خفي علــى أكثــر النــاس واضطرب عليهم الكلام في حكمته اضطراب الأرشية، وســلكوا فــي هــذا البــاب مسالك: فقالت طائفة: ليس إلا محض المشيئة العارية عن الحكمة، والغاية المطلوبــة وسدوا على أنفسهم هذا الباب جملة، وكلما سئلوا عن شيء أجابوا ب ﴿ **لاَ يُسأَلُ عَمَّا يَفعلُ** ﴾ وهذا من أصدق الكلام، وليس المراد به نفي حكمته تعالى، وعواقب أفعالــه الحميدة وغاياتها المطلوبة منها، وإنّما المراد بالآية إفــراده بالإلهيــة والربوبيــة... وقالت طائفة: الحكمة في ابتلائهم تعويضهم في الآخرة بالثواب التام، فقيل لهم: قــد كان يمكن إيصال الثواب إليهم بدون هذا الإيلام، فأجابوا: بأنّ توسّط الإيلام في حقهم كتوسط التكاليف في حق المكلفين فقيل لهم: فهذا ينقض عليكم بإيلام أطفــال الكفــار فأجابوا: بأنا لا نقول: إنهم في النار كما قاله من قاله من الناس، والنار لا يدخلها أحد إلا بذنب، وهؤلاء لا ذنب لهم، فأورد عليهم ما لا جواب لهم عنه، وهو إيلام أطفالهم

1 – أحمد العمري، بلاغة الحوار، د ط . المملكة المغربية: 2005، منشورات وزارة الأوقــاف والشؤون الإسلامية، ص 55.

الذين قدر بلوغهم وموتهم على الكفر فإنّ هذا لا تعويض فيه قطعا ولا عقوبة على الكفر، فإنّ العقوبة لا تكون سلفا وتعجيلا فحاروا في هذا الموضع واضطربت أصولهم ولم يأتوا بما يقبله العقل..."[1] تحدث ابن القيم في هذه الفقرة عن حكمة الله في كثرة بكاء الأطفال، وما لهم فيه من المنفعة والمصلحة فيما تسمعه من بكائه وصراخه، وقد يجهل الناس الحكمة في بكاء الأطفال وسلكوا في هذا الباب مسالك ولبيان ذلك لجأ ابن القيم إلى أسلوب الحوار، فبين رأي كل طائفة في ذلك، وكأنه حضر مناضرة، وتقابل فيها الخصمان، فأدلى كل واحد بدلوه وبعدها يورد ابن القيم عليهم ما لا جواب لهم عنه.

ويقول ابن القيم: " ثم تأمّل حكمة الله تعالى في كثرة بكاء الأطفال وما لهم فيه من المنفعة، فإنّ الأطباء والطبائعيين شهدوا منفعة ذلك وحكمته وقالوا: في أدمغة الأطفال رطوبة لو بقيت في أدمغتهم لأحدثت أحداثا عظيمة، فالبكاء يسيل ذلك ويحدره من أدمغتهم، فتقوى أدمغتهم وتصحّ، وأيضا فإنّ البكاء والعياط يوسّع عليه مجاري النفس ويفتح العروق ويصلبها ويقوي الأعصاب... وليست آلام الأطفال بأصعب من آلام البالغين، لكن لما صارت لهم عادة سهل موقعها عندهم وكم بين ما يقاسيه الطفل ويعانيه البالغ العاقل، وكل ذلك من مقتضى الإنسانية وموجب الخلقة، فلو لم يخلق كذلك لكان خلقا آخر، أفترى أنّ الطفل إذا جاع أو عطش أو برد أو تعب قد خصّ من ذلك بما لم يمتحن به الكبير، فإيلامه بغير ذلك من الأوجاع والأسقام، كإيلامه بالجوع والعطش والبرد والحرّ، قالوا فإن سأل سائل وقال: فلم خلق كذلك؟ وهلا خلق خلقة غير قابلة للألم؟ فهذا سؤال فاسد، فإنّ الله تعالى خلقه في عالم الابتلاء والامتحان من مادة ضعيفة، فهي عرضة للآفات وركّبه تركيبا معرّضا للأنواع من الآلام، وجعل فيه الأخلاط الأربعة التي لا قوام له إلا بها، ولا يكون إلا عليها وهي لا محالة... "[2].

---

1 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 230.

2 – المرجع نفسه، ص 231.

بيّن ابن القيم في هذه الفقرة حكمة الله تعالى في كثرة بكاء الأطفال، وما لهم فيه من المنفعة، واستدل بذلك بحقيقة علمية متمثلة في رأي الأطباء في هذه المسألة، والذين هم من أهل الاختصاص، ثم أدلى ابن القيم بدلوه حول هذه المسألة وهذه طريقته في المناقشة، وهي اللجوء إلى أسلوب الحوار، فبعد الاستماع إلى كل طائفة، يضيف إلى كلامها ما غفلت عنه، أو يبدي اعتراضه، مبيّنا أوجه الخطأ والصواب في المسألة.

نموذج آخر: يقول ابن القيم: " وقد روي عن النبي ﷺ أنّ آدم نام في جنّته وجنة الخلد لا نوم فيها بإجماع من المسلمين، لأنّ النوم وفاة، وقد نطق به القرآن والوفاة تقلّب حال، ودار السلام مسلّمة من تقلّب الأحوال، والنائم ميّت أو كالميّت قالوا: وقد روي عنه ﷺ أنه قال لأمّ حارثة لما قالت له: يا رسول الله إنّ حارثة قُتل معك، فإن صار إلى الجنة صبرت واحتسبت، وإن كان صار إلى ما سوى ذلك رأيت ما أفعل فقال لها رسول الله ﷺ :" أَوَجنّة واحدة هي؟ إنّما هي جنان كثيرة "فأخبر ﷺ أنّ لله جنّات كثيرة، فلعلّ آدم أسكنه الله جنة من جناته ليست هي جنة الخلد، قالوا: وقد جاء في بعض الأخبار أنّ جنّة آدم كانت بالهند، قالوا: وهذا وإن كان لا يصحّحه رواة الأخبار ونقلة الآثار، فالذي تقبله الألباب، ويشهد له ظاهر الكتاب، أنّ جنة آدم ليست جنّة الخلد ولا دار البقاء، وكيف يجوز أن يكون الله أسكن آدم جنّة الخلد ليكون فيها من الخالدين، وهو قائل للملائكة: ﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾ (البقرة: 30)؟ وكيف أخبر الملائكة أنّه يريد أن يجعل في الأرض خليفة، ثمّ يسكنه دار الخلود، ودار الخلود لا يدخلها إلاّ من يخلد فيها، كما سمّيت بدار الخلود، فقد سمّاها الله بالأسماء التي تقدم ذكرها، لها تسمية مطلقة لا خصوص فيها، فإذا قيل للجنة: دار الخلد، لم يَجُز أن ينقض مسمّى هذا الاسم بحال، فهذا بعض ما احتجّ به القائلون بهذا المذهب، فالجواب أن يُقَال: هذا فيه قولان للناس، ونحن نذكر القولين، واحتجاج الفريقين، ونُبَيّن ثبوت الوجوه التي ذكرناها وأمثالها على كلا القولين، ونذكر أولاً قول من قال: إنّها جنة الخلد التي وعدها الله المتقين وما احتجوا به، وما أجابوا به عن حجج من قال: إنها غيرها ثم نتبعها مقالة الآخرين وما احتجوا به، وما أجابوا به عن حجج منازعيهم من غير

انتصاب لنصر أحد القولين وإبطال الآخر...[1]" تحدث ابن القيم في هذه الفقرة عن حكمة الله سبحانه في إدخال آدم الجنة، فذكر بعض الأقوال حول هذا الشأن، وما جرى بينها من حوار معتمدين الأخذ والرد، وكل وحججه، ووقف ابن القيم موقف المتلقي من أجل تكوين موقف في نقطة غير معينة سلفا بين المتحاورين، وكان الغرض بذلك الرد على من زعم أنّ حكمة الله سبحانه تأبى إدخال آدم الجنة وتعريضه للذنب الذي أخرج منها به، والرد على من أبطل أن يكون له حكمة في ذلك، وإنّما هو صادر عن محض المشيئة التي لا حكمة وراءها.

المبحث الثالث: الأسلوب الأدبي:

وهذه خاصية أخرى من خصائص أسلوب ابن القيم، ورغم أنّ مفتاح دار السعادة كتاب في الوعظ والإرشاد، والأصل أن يستخدم فيه الأسلوب العلمي ويبتعد عن زخرفة الكلام، إلا أنّ الإمام ابن القيم لم يخرج عن مألوفه، ولم يخلع ربقة البلاغة من عنقه، فقد اهتم بالشكل كما اهتم بالمضمون، فتميز أسلوبه بالسهولة وخلوّه من التعقيد بنوعيه اللفظي والمعنوي، كما تميّز بوضوح العبارة وعذوبة الألفاظ، والميل إلى الصور البيانية، والمحسنات البديعية في غير تكلف ولا ضير فقد كان رجل البلاغة فقد قال عنه العلامة الشوكاني: "وكل تصانيفه مرغوب فيها بين الطوائف، وله من حسن التصرّف في الكلام مع العذوبة الصادقة، وحسن السياق ما لا يقدر عليه غالب المصنفين؛ بحيث تعشق الأفهام كلامه، وتميل إليه الأذهان وتحبّه القلوب[2]" فقد ظهر أثر ذلك في أسلوبه ففيه السجع وسائر المحسنات، لكن ذلك بقدر، كما أنّه لا يكون منه في كل حال، وإنّما في مقام مخصوص، وهو بصورة واضحة لا يلجأ إلى الأسلوب الحافل بالمحسنات إلا في مقدمات كتبه أو مقدمات بعض أبحاثه، وإذا مثّلنا لذلك بمقدمة كتابه مفتاح دار

---

1 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 1، ص 131– 132.

2 – الشوكاني، البدر الطالع، ج 1، ص 144.

السعادة، فتراه يحمد الله ويثنى عليه قائلا: "الحمد لله الذي أقام في أزمنة الفترات من يكون ببيان سنن المرسلين كفيلا، واختص هذه الأمة بأنه لا تزال فيها طائفة على الحقّ لا يضرّهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتي أمره، ولو اجتمع الثقلان على حربهم قبيلا، يدعون من ضلّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، ويحيون بكتابه الموتى، فهم أحسن الناس هدياً وأقومهم قيلاَ، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، ومن ضال جاهل لا يعلم طريق رشده قد هدوه، ومن مبتدع في دين الله بشهب الحق قد رموه جهادا في الله وابتغاء مرضاته وبيانا لحججه على العالمين وبيّناته، وطلبا الزلفى لديه، ونيل رضوانه وجنّاته، فحاربوا في الله من خرج عن دينه القويم، وصراطه المستقيم الذين عقدوا ألوية البدعة وأطلقوا أعنة الفتنة، وخالفوا الكتاب، واختلفوا في الكتاب واتفقوا على مفارقة الكتاب ونبذوه وراء ظهورهم، وارتضوا غيره عنه بديلا أحمده وهو المحمود على كل ما قدّره وقضاه، وأستعينه استعانة من يعلم أنّه لا ربّ له غيره، ولا إله سواه، واستهديه سبيل الذين أنعم عليهم ممّن اختاره لقبول الحق وارتضاه، وأشكره والشكر كفيل بالمزيد من عطاياه، وأستغفره من الذنوب التي تحول بين القلب وهداه، وأعوذ به من شر نفسي وسيئات عملي استعاذة عبد فار إلى ربه بذنوبه وخطاياه، وأعتصم به من الأهواء المردية، والبدع المضلّة، فما خاب من أصبح به معتصما وبحماه نزيلا[1]" وإنّ المتأمل لهذه المقدمة لوجدها جميلة رشيقة مناسبة للمقام الذي وضعت فيه، ففي لفظها عناية بالمعنى لا تقل عن العناية باللفظ، فقد ظهر أثر السجع في العبارات التالية: (خذلهم، خالفهم) و(أحيوه، هدوه رموه) و(مرضاته، بيناته) و(القويم، المستقيم) وإذا تأملنا أيضا هذه الكلمات: البدعة – الفتنة، وهي على نفس الوزن (فعلة) ممّا جعلها خفيفة على السمع لما تحمله من رنّة موسيقية.

---

1 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 1، ص 103.

وإذا مثّلنا لذلك أيضا بمقدمة كتابه (زاد المعاد) وجدنا المقدمة رشيقة مناسبة للمقام الذي وضعت فيه باختياره حسن الألفاظ، فيثني على الله قائلا: "مالك يوم الدين الذي لا فوز إلا في طاعته، ولا عزّ إلا في التذلل لعظمته، ولا غنى إلا في الافتقار إلى رحمته، ولا هدى إلا في الاستدلال بنوره، ولا حياة إلا في رضاه، ولا نعيم إلا في قربه، ولا صلاح للقلب، ولا فلاح إلا في الإخلاص له، وتوحيد حبه الذي إذا أطيع شكر، وإذا عصى تاب وغفر، وإذا دعا جاب، وإذا عومل أثاب والحمد لله الذي شهدت له بالربوبية جميع مخلوقاته، وأقرّت له بالإلوهية جميع مصنوعاته[1]" فيلاحظ في هذه المقدمة تعبيرات أدبية سامية مع العذوبة الزائدة وحسن السياق، فقد ظهر أثر السجع في العبارات (طاعته، عظمته) و(مخلوقاته مصنوعاته) و(أثاب، جاب) (صلاح، فلاح) و(شكر، غفر) مما أكسبها جمالا وحلاوة.

وفي موضع آخر يقول ابن القيم: "وإذا عرفت معنى كون آيات الربّ تبارك وتعالى تبصرة وذكرى يتبصر بها من عمى القلب، ويتذكر من غفلته، فإنّ المضاد للعلم إما عمى القلب وزواله بالتبصر، وإما غفلته وزواله بالتذكر والمقصود تنبيه القلب من رقدته بالإشارة إلى شيء من بعض آيات الله، ولو ذهبنا نتتبّع ذلك، لنفذ الزمان ولم نحط بتفصيل واحدة من آياته على التمام، ولكن ما لا يدرك جملة لا يترك جملة وأحسن ما أنفقت فيه الأنفاس التفكر في آيات الله وعجائب صنعه، والانتقال منها إلى تعلق القلب والهمّة به دون شيء من مخلوقاته[2]" نرى في هذه الفقرة تعبيرات أدبية سامية وهي: (عمى القلب) و(تنبيه القلب من رقدته) وهي تعبيرات أدبية مجازية وضعت في مقامها المناسب، وقد تكسب بيانه جمالا، ولغته حلاوة. **وفي موضع آخر يقول ابن القيم في مقدمة**

---

1 - ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، تح الشيخ حسن محمد المسعودي، د ط. بيروت، د س، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع، ج 1، ص 3.

2 - المرجع نفسه، ج 2، ص 68.

بحثه: سؤال للجاحد الجاهل: "سل المعطّل الجاحد: ما تقول في دولاب دائر على نهر قد أحكمت آلاته، وأحكم تركيبه، وقدرت أدواته أحسن تقدير وأبلغه؛ بحيث لا يرى الناظر فيه خللا في مادته، ولا في صورته وقد جعل على حديقة عظيمة فيها من كل أنواع الثمار والزروع يسقيها حاجتها، وفي تلك الحديقة من يلم شعثها ويحسن مراعاتها، وتعهدها والقيام بجميع مصالحها، فلا يختل منها شيء، ولا تتلف ثمارها، ثم يقسم قيمتها عند الجذاذ على سائر المخارج بحسب حاجاتهم وضروراتهم، فيقسم لكلّ صنف منهم ما يليق به، ويقسمه هكذا على الدوام... أترى هذا اتفاقا بلا صانع ولا مختار ولا مدبر؟ ولكن من حكمة العزيز الحكيم أن خلق قلوبا عميا لا بصائر لها، فلا ترى هذه الآيات الباهرة إلا رؤية الحيوانات البهيمية، كما خلق أعينا عميا لا أبصار لها، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره وهي لا تراها، فما ذنبها إن أنكرتها وجحدتها، فهي تقول في ضوء النهار: هذا ليل، ولكن أصحاب الأعين لا يعرفون شيئا[1]" وما يلاحظ في هذا المثال أنّ ابن القيم وفق إلى حد بعيد في اختيار الألفاظ المناسبة التي تتماشى والمقام، ويظهر ذلك في هذه العبارات: (حاجاتهم، ضروراتهم) و(آلاته، أدواته) و(قلوبا عميا أعينا عميا) وكلها ألفاظ عذبة تحدث جرسا موسيقيا خفيفا على الأذن، فقد وفق ابن القيم في لجوئه إلى الصور البيانية، والمحسنات البديعية في غير تكلف.

ويقول ابن القيم في مقدمة بحثه استجماع قوى القلب: "ومنها أنّ القلب يكون ذاهلا عن عدوّه، مُعرضا عنه مشتغلا ببعض مهماته، فإذا أصابه سهم من عدوه استجمعت له قوته وحاسته وحميته، وطلب بثأره إن كان قلبه حرا كريما كالرجل الشجاع إذا جرح فإنّه لا يقوم له شيء، بل تراه بعدها هائجا طالبا مقداما والقلب الجبان المهين إذا جرح كالرجل الضعيف المهين إذا جرح ولى هاربا والجراحات في أكتافه، وكذلك الأسد إذا جُرح فإنّه لا يطاق، فلا خير فيمن لا مروءة له بطلب أخذ ثأره من أعدى عدوّه، فما شيء أشفى للقلب من أخذه بثأره

1 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ص 69.

من عدوه، ولا عدو أعدى له من الشيطان، فإن كان قلبه من قلوب الرجال المتسابقين في حلبة المجد، جدّ في أخذ الثأر، وغلظ عدوه كل الغيظ وأضناه، كما جاء عن بعض السلف: أنّ المؤمن لينضي شيطانه كما ينضي أحدكم بَعيرَهُ في سفره[1]" يظهر في هذه الفقرة اللغة الراقية لابن القيم، لما حباه الله من قوة العبارة ونفاذ البصيرة، فيلاحظ عنايته باللفظ والمعنى، ويظهر ذلك في استعماله لكلمات مثيرة وهي: (القلب يكون ذاهلا) و(سهم من عدوه) و(القلب الجبان المهين) و(الأسد إذا جرح) وكلّها تعبيرات أدبية مجازية تتماشى وطبيعة الموضوع، ويحرص على إيصالها إلى المتلقي في أحسن صورة.

المبحث الرابع: الأُسلوبُ العلمي:

اختلف الباحثون القدامى والمحدثون في تعريف اللغة وتحديد مفهومها، ولا يعنينا هنا تتبّع الاختلاف في تعريفها أو مناقشة أسس هذا الاختلاف، وإنّما الذي يهمّنا أساسا هو الوقوف على تعريف يمكن أن يوافق بين أغلب هذه الآراء، ويحدد طبيعة اللغة في إطار مقبول، ويعكس حقيقة أبعادها وعناصرها المكونّة لها، وكيانها العضوي في تشكيله الدقيق، واللغة حسب ما تعرّفها المعاجم هي تلك الظاهرة الاجتماعية المؤلفة من الكلمات والجمل ذات المفاهيم الدالة، والتي تحمل الأفكار والمشاعر وردود الأفعال ويتم بواسطتها التواصل.

أما اللغة العلمية فيعرّفها الأستاذ الدكتور صالح بلعيد قائلا: "واللغة العلمية هي تلك اللغة التي تمتاز بمواصفات مستقلّة عن اللغة الأدبية، فهي لا تستعمل نحو لغة ما إلا الميسّر والسّهل، والأكثر توظيفا، ولا تُوظّف مثلا كل حالات الابتداء بالنكرة...[2]" فاللغة الأدبية إذن غير اللغة العلمية، والتي تقتضي استعمال الدقة

---

1 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 287.

2 – صالح بلعيد، اللغة العربية العلمية، د ط. الجزائر: 2003، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، ص 38.

والوضوح والإيجاز والتي لا تقبل الالتباس والإيحاء والإبهام، على أنّ ابن القيم يتحرر تماما في أسلوبه من قيود الصناعة اللفظية حين يناقش المسائل العلمية، أو يتناول لبّ الموضوع، وتستطيل الجملة في أسلوبه العلمي بلغة علمية، ويغلب أن تكون قصيرة في مقام الإقناع حين ينافح عن وجهة نظره التي يخالف بها بعض معاصريه، وأمثلة عن التعبير العلمي في مفتاح دار السعادة كثيرة ومستفيضة.

يقول ابن القيم: "وتأمّل كيفية خلق الرأس وكثرة ما فيه من العظام حتىّ قيل: إنّها خمسة وخمسون عظما مختلفة الأشكال والمقادير والمنافع، وكيف ركّبه سبحانه وتعالى على البدن، وجعله عاليا عليه علوّ الراكب على مركوبه، ولمّا كان عاليا على البدن، جعل فيه الحواس الخمس، وآلات الإدراك كلها من السمع والبصر والشم والذوق واللمس، وجعل حاسة البصر في مقدّمه، ليكون كالطليعة والحرس والكاشف للبدن وركّب كلّ عين من سبع طبقات، لكل طبقة وصف مخصوص، ومقدار مخصوص ومنفعة مخصوصة، لو فقدت طبقة من تلك الطبقات السبع أو زالت عن هيئتها وموضعها لتعطّلت العين عن الإبصار، ثم أركز سبحانه داخل تلك الطبقات السبع خلقا عجيبا، وهو إنسان العين بقدر العدسة يبصر به ما بين المشرق والمغرب والأرض والسماء، وجعله من العين بمنزلة القلب من الأعضاء، فهو ملكها، فتلك الطبقات والأجفان والأهداب خدم له وحجاب وحراّس فتبارك الله أحسن الخالقين[1]" يصف ابن القيم في هذه الفقرة كيفية خلق الله سبحانه وتعالى رأس الإنسان، وكيف جعل الله فيه الحواس الخمس، وشق فيه العين للبصر... وإذاً تأمّلنا أسلوب ابن القيم في هذه الفقرة لظهر جليا أنّه أسلوب علمي خال من غرابة اللفظ والزخرفة اللفظية، ذلك أنه يناقش مسألة علمية بحتة، ممّا يتوجّب عليه اللجوء إلى أسلوب علمي، ولغة علمية بعيدة عن التكلف والإبهام.

وشبيه هذا المثال يقول ابن القيم: "... ثمّ زيّن سبحانه الفمّ بما فيه من الأسنان التي هي جمال له وزينة، وبها قوام العبد وغذاؤه، وجعل بعضها أرحاء

---

1 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 9.

للطحن، وبعضها آلة للقطع، فأحكم أصولها وحدّد رؤوسها، وبيّض لونها، ورتّب صفوفها متساوية الرؤوس متناسقة الترتيب، كأنّها الدّر المنظوم بياضا وصفاء وحسنا، وأحاط سبحانه على ذلك حائطين، وأودعهما من المنافع والحكم ما أودعهما وهما الشفتان، فحسّن لونهما وشكلهما ووضعهما، وهيّأهما وجعلهما غطاء للفم وطبقا له، وجعلهما إتماما لمخارج حروف الكلام ونهاية له، كما جعل أقصى الحلق بداية له، واللسان وما جاوره وسطا، ولهذا كان أكثر العمل فيها له؛ إذ هو الواسطة، واقتضت حكمته أن جعل الشفتين لحما صرفا لا عظم فيه ولا عصب ليتمكن بهما من مصّ الشراب، ويسهّل عليه فتحهما وطبقهما، وخصّ الفك الأسفل بالتحريك؛ لأنّ تحريك الأخف أحسن؛ ولأنّه يشتمل على الأعضاء الشريفة، فلم يخاطر بها في الحركة، وخلق سبحانه الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة والصلابة واللين والطول والقصر، فاختلفت بذلك الأصوات أعظم اختلاف، ولا يكاد يشبه صوتان إلا نادراً وزيّن سبحانه الرأس بالشعر وجعله لباسا له لاحتياجاته إليه، وزيّن الوجه بما أنبت فيه من الشعور المختلفة الأشكال والمقادير، فزيَّنَه بالحاجبين، وجعلهما وقاية لما يتحدر من بشرة الرأس إلى العينين، وقوّسهما وأحسن خطهما، وزيّن أجفان العينين بالأهداب وزيّن الوجه أيضا باللحية، وجعلهما كمالا ووقارا ومهابة للرجل، وزيّن الشفتين بما أنبت فوقهما من الشارب وتحتهما من العنفقة...[1]" يواصل ابن القيم في هذه الفقرة حديثه عن خلق الله الإنسان، وبعد حديثه عن خلق الرأس في الفقرة السابقة، ينتقل إلى عنصر آخر وهو خلق الله الفم والأسنان والشفاه، وهذه الفقرة لا تقل أهمية عن سابقتها، وهي سلسلة مترابطة تكمل إحداهما الأخرى، فقد وفق ابن القيم في الربط بين الأفكار والعناصر بأسلوب علمي بعيد عن التكلف والزخرفة اللفظية، يتناسب وطبيعة الموضوع، وهو التفكر في خلق الله.

1- ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 12.

وفي موضع آخر يقول ابن القيم: "... وقد ظهر بهذا بطلان قول طـــائفتين معا؛ الذين وضعوا الله شريعة بعقولهم أوجبوا عليه، وحرّموا منها ما لـــم يوجبـــه على نفسه، ولم يحرّمه على نفسه، وسوّوا بينه وبين عباده فيما يحسن منهم ويقبح وبذلك استطال عليهم خصومهم، وأبدوا مناقضـــتهم وكشـــفوا عـــوراتهم وبينـــوا فضائحهم، وكذلك بطلان قول الطائفة التي جوّزت عليه كلّ شيء، وأنكرت حكمته وجحدت في الحقيقة ما يستحقه من الحمد والثناء على ما يفعله مماّ يمـــدح بفعلـــه وعلى ترك ما يتركه مع قدرته عليه مماّ يمدح بتركه، وجعلت النوعين واحدا، ولا فرق عندهم بالنسبة إليه تعالى بين فعل ما يمدح بفعله وبين تركه، ولا بين ترك ما يمدح بتركه وبين فعله، وبهذا تسلط عليهم خصومهم وأبدوا مناقضـــتهم، وتبينـــوا فضائحهم، قال المتوسطون: وأما نحن فلا يلزمنا شيء من هذه الفضائح والأباطيل، فإناّ لم نوافق طائفة من الطائفتين على كلّ ما قالته، بل وافقنا كـــل طائفـــة فيمـــا أصابت فيه من الحق، وخالفناها فيما خالفت فيه الحق فكناّ أسعد به من الطـــائفتين ولله المنة والفضل، هذا قولنا قد أوضحناه في هذه المسألة غاية الإيضاح، وأفصحنا عنه بما أمكننا من الإفصاح، فمن وجد سبيلا إلى المعارضة أو رام طريقـــا إلـــى المناقضة، فليبدها فإنا من وراء الرد عليه، وإهداء عيوب مقالته إليه ونحن نعلم أنّه لا يرد علينا مقالتنا إلا بإحدى المقالتين اللتين كشفنا عن عوارهما وبينا فســـادهما فليستر عورة مقالته، ويصلح فسادها، ويَرم شعثها، ثم ليلق خصومه بها فالمحاكمة إلى النقل الصريح والعقل الصحيح والله المستعان[1]" يتبين في هذه الفقـــرة أنّ ابـــن القيم تحرر تماما من قيود الصناعة اللفظية، وذلك حين ناقش هذه المسألة العلميـــة بأسلوب علمي، ويغلب في جمله أن تكون قصيرة قوية في مقام الإقناع حين نـــافح عن وجهة نظره التي خالف بها بعض معاصريه.

وفي موضع آخر يقول ابن القيم: " أما ذكر الفلاسفة من مقصود الشرائع وأنّ ذلك لاستكمال النفس قوى العلم والعمل والشرائع ترد بتمهيد ما تقرر في العقل

1- ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 3، ص 8.

بتعبيره... إلى آخره، فهذا مقام يجب الاعتناء بشأنه، وأن لا نضرب عنه صفحا فنقول: للناس في المقصود بالشرائع والأوامر والنواهي أربعة طرق: أحدهما: طريق من يقول من الفلاسفة وأتباعهم من المنتسبين إلى الملل: إنّ المقصود بها تهذيب أخلاق النفوس وتعديلها، لتستعدّ بذلك لقبول الحكمة العلمية والعملية، ومنهم من يقول: لتستعد بذلك لأن تكون محلا لانتقاش صور المعقولات، ففائدة ذلك عندهم كالفائدة الحاصلة من صقل المرآة، لتستعد لظهور الصور فيها، وهؤلاء يجعلون الشرائع من جنس الأخلاق الفاضلة والسياسات العادلة، ولهذا رام فلاسفة الإسلام الجمع بين الشريعة والفلسفة، كما فعل ابن سينا والفارابي وأضرابهما، وآل بهم إلى أن تكلّموا في خوارق العادات والمعجزات على طريق الفلاسفة المشائين وجعلوا لها أسبابا ثلاثة، أحدها: القوى الفلكية، الثاني: القوى النفسية، الثالث: القوى الطبيعية ... وبالجملة فهو مبني على الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وليس هذا موضع الرد على هؤلاء وكشف باطلهم وفضائحهم؛ إذ المقصود ذكر طرق الناس في المقصود بالشرائع والعبادات، وهذه الفرقة غاية ما عندها في العبادات والأخلاق والحكمة العلمية أنّهم رأوا النفس لها شهوة وغضب بقوتها العملية، ولها تصور وعلم بقوتها العلمية فقالوا: كمال الشهوة في العفة، وكمال الغضب في الحكم والشجاعة، وكمال القوة النظرية بالعلم، والتوسط في جميع ذلك بين طرفي الإفراط والتفريط هو العدل، هذا غاية ما عند القوم من المقصود بالعبادات والشرائع، وهو عندهم غاية كمال النفس، وهو استكمال قوتها العلمية والعملية، فاستكمال قوتها العلمية عندهم بانطباع صور المعلومات في النفس واستكمال قوتها العلمية بالعدل..."[1] يتحدث ابن القيم في هذه الفقرة عن مقصود الشرائع وما ذكره الفلاسفة عن ذلك، ولقد لجأ ابن القيم إلى الأسلوب العلمي الذي يتماشى وطبيعة الموضوع، فأخذ يصول ويجول، فقد استوفت المسألة حقها في التحليل والنقاش، ولبيان حججه يستشهد بفلاسفة الإسلام للجمع بين الشريعة

---

1 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 3، ص 26.

والفلسفة، كما فعل ابن سينا والفارابي وأضرابهما، وذلك بأسلوب علمـــي واضـــح وبالجملة، تبدو عبارات ابن القيم جزلة قوية تمتاز بالوضوح والبعد عـــن الغرابـــة والمقدرة الفائقة في الحجاج والرد والإقناع.

ويقول أيضا: "فليتأمل العاقل ما في الكلام من ضروب المحال، وما للفلــك ووصول البخارات الأرضية إليه، وهل في قوة البخارات تصاعدها إلى سطح الفلك مع البعد المفرط؟ والبُخار إذا ارتفع، فغاية ارتفاعه كارتفــاع الســحاب لا يتعــداه وهل تتأثر العلويات بطبائع السفليات، وتتكيف بكيفياتها وتنفعل عنها؟ وممّــا يــدل على فساد ذلك أيضا أنّ القمر لو كان مترطبا من البخــارات، وجــب أن تــزداد رطوبته في كل يوم؛ لأنه دائم القبول للبخارات، ولا يقولون ذلك وإن إلتزمه منهم مكابر، وقال كل يوم يزداد رطوبة، قلتُ له: فما تنكر أن تكون دلالة زحل والمريخ على النحوس تتزايد وتكون دلالته على النحوس في اليوم أكثر مــن دلالتــه فــي الأمس، ولو فتح عليكم هذا الباب فلعلّ السعد ينقلب نحسا، وبالعكس، وهذا يرفــع الأمان عن أصول هذا العلم...[1]" يظهر في هذه الفقرة الأســلوب العلمــي، وذلــك عندما يشرح ابن القيم الحقائق العلمية التي لا تخلو من غموضٍ وخفاءٍ، فهو أكثــر احتياجا إلى المنطق السليم والفكر المستقيم؛ لأَنه يخاطب العقلَ، ويناجي الفكر.

المبحث الخامس: السّجــع:

لقد تأثّر ابن القيم في أسلوبه بالمزايا التي اتصف بها الأسلوب في عصــره ومن ذلك السجع، والذي رأيته يصدر عنه دون تعمّد أو تكلف في صفحات كثيــرة من كتابه. وأمثلة السجع كثيرة ومستفيضة في مفتاح دار السعادة، نذكر بعضا منها:

يقول ابن القيم: "فالدنيا قرية والمؤمن رئيسها، والكل مشغول به ساع فــي مصالحه والكلّ قد أقيم في خدمته وحوائجه، فالملائكة الذين هــم حملــة عــرش

1- ابن قيم الجوزية، المرجع السابق، ص 110.

الرحمن، ومن حوله يستغفرون له، والملائكة الموكلون به يحفظونه، والموكلـــون بالقطر والنبات يسعون في رزقه، ويعملون فيه، والأفلاك مسخّرة منقادة دائرة بما فيه مصالحه، والشمس والقمر والنجوم مسخرات جاريات بحساب أزمنته وأوقاتـــه وإصلاح رواتب أقواته، والعالم الجويّ مسخّر له برياحه وهوائه وسحابه وطيـــره وما أودع فيه، والعالم السفلي كله مسخّر له مخلوق لمصالح أرضه وجباله وبحاره وأنهاره وأشجاره وثماره ونباته وحيوانه، وكل ما فيه كما قال تعالى: ﴿ **اللهُ الذي سَخَرَ لَكُم البَحرَ لتَجري الفُلكُ فيه بأَمره وَلتَبتَغُوا من فَضـــله وَلَعَلّكُـــم تَشـــكُرُون وَسَخَّرَ لَكُم مَا في السَّمَوَات وَمَا في الأَرض جَميعاً منهُ إنَّ في ذلكَ لآيـــَات لقَـــوم يَتَفَكَرُون** ﴾ (الجاثية: 12-13) فالسائر في معرفة آلاء الله، وتأمل حكمته وبـــديع صفاته أطول باعا، وأملأ صواعا من اللصيق بمكانه المقيم في بلد عادته وطبعـــه راضيا بعيش بني جنسه، لا يرضى لنفسه، إلاّ أن يكون واحدا منهم يقول: لي أسوة بهم[1]" يتحدث ابن القيم في هذه الفقرة عن تكريم الله لبني آدم، وتبدو عباراته جزلة قوية تمتاز بالوضوح والبعد عن الغرابة، ويتميز بطول النفس والمقدرة الفائقة في الإقناع، و نراه إذا تناول مسألة صال فيها وجال، وذلك بأسلوب مشـــوق وجـــذاب حافل بالسجع، ويظهر هذا في العبارات:

(مصالحه، حوائجه) و(أزمنته، أوقاته، أقواته) و(رياحه، هـــوائه، سحابه)

(بحاره، أنهاره، أشجاره، ثماره) و(حكمته، صفاته) و(جنسه، نفسه).

وفي موضع آخر، يقول ابن القيم: "ثمّ تأمّل الحكمة في أن جعل الحـــواس خمسا في مقابلة المحسوسات الخمس، ليلقى خمسا بخمس، كي لا يبقى شيء مـــن المحسوسات لا يناله بحاسة، فجعل البصر في مقابلة المبصرات، والسمع في مقابلة الأصوات، والشم في مقابلة أنواع الروائح المختلفات، والذوق في مقابلة الكيفيـــات المذوقات، واللمس في مقابلة الملموسات، فأيّ محسوس بقي بلا حاسة، ولو كـــان في المحسوسات شيء غير هذه لأعطاك له حاسة سادسة، ولمّا كان ما عداها، إنّما

---

1 - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 201- 202 .

يدرك بالباطن أعطاك الحواس الباطنة، وهي هذه الأخماس التي جرت عليها السنة العامة والخاصة؛ حيث يقولون للمفكر المتأمل: ضـــرب أخماســـه فـــي أسداســـه فأخماسه حواسه وأسداسه جهاته الست، وأرادوا بذلك أنّه جذبه القلب، وسار به في الأقطار والجهات، حتىّ قلب حواسه الخمس في جهاته الست وضربها فيها لشـــدة فكره[1] " يتحدّث ابن القيم في هذه الفقرة عن حواس الإنسان، ثمّ الحكمة في أن جعل الحواس خمسا في مقابلة المحسوسات الخمس، وإذا لاحظنا هـــذه الفقـــرة لوجـــدنا مفرداتها عذبة تحدث جرسا موسيقيا خفيفا على الأذن، ولعلّ السبب في ذلك تكرار بعض الكلمات من جهة مثل: خمس المحسوسات، الحواس، والســـجع مـــن جهـــة أخرى، والذي يظهر في الكلمات:

(المبصرات، الأصوات) و(المختلفات، المذوقات).

نموذج آخر: يقول ابن القيم: "وأعجب من هذا كلّه، تشكّل الفلـــك بشـــكل وحصول طالع سعد فيه، باتفاق ملئكم، فيحدث معه من علوّ كلمة من لا يعبـــؤون به، ولا يعدونه وظهور أمرهم، واستيلائهم على المملكة والرئاسة والعزّ والحيـــاة ولهجهم بذمكم وعيبكم، وإبداء جهلهم وزندقتكم وإلحادكم، فتحتاجون أن تنضـــووا إليهم، وتعتصموا بحبلكم، وتترسوا بهم، وتقولون لهم بألسنتكم ما تنطـــوي قلـــوبكم على خلافه، ممّا لو أظهرتموه لكنتم حصائد سيوفهم، كما صرتم حصائد ألسنتهم[2]" يتحدث ابن القيم في هذه الفقرة عن الطالع الصادق الكاذب المصيب المخطئ، وعن المنجمين، وذلك بأسلوب قوي، وألفاظ موحية، وعبارات جزلة قوية يتخللها السجع ممّا زادها جمالا وعذوبة، ويظهر السجع في الكلمات التالية: (عيـــبكم، زنـــدقتكم إلحادكم) و(إليهم، بهم) و(سيوفهم، ألسنتهم).

---

1 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 204.

2 – المرجع نفسه، ج 3، ص 163.

المبحث السادس: المعرفة اللّغــويّة:

ومن خصائص أسلوب ابن القيم كذلك معرفته اللغوية، وهذا ما لاحظته جليا في مواضع كثيرة من الكتاب؛ حيث كان إذا عرضت له مسألة لغوية، إلا وبحــث فيها. **وأمثلة ذلك، يقول ابن القيم:** "تأمل نعمة الله على الإنسان بالبيــانين: البيــان النطقي والبيان الخطي، وقد اعتدّ بهما سبحانه في جملة ما اعتد به من نعمه علـــى العبد فقال تعالى في أول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ:﴿ **اقرَأ بِاسْمِ رَبّكَ الذي خَلَق خَلَقَ الإنسَانَ من عَلَق اقرَأ وَرَبكَ الأَكرَم الذِي عَلَّمَ بالقَلَم عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَم يَعلَم** ﴾ (العلق:1-5) فتأمل كيف جمع في هذه الكلمات مراتب الخلق كلها، وكيف تضمنت مراتب الموجودات الأربعة بأوجز لفظ وأوضــحه وأحســنه، فــذكر أوّلا عموم الخلق، وهو إعطاء الوجود الخارجي، ثمّ ذكر ثانيا خصوص خلق الإنســان لأنه موضع العبرة والآية فيه عظيمة، ومن شهوده عما فيه محــض تعــدد الــنعم وذكر مادة خلقه هاهنا من العلقة، وفي سائر المواضع يذكر ما هو سابق عليها، إما مادة الأصل، وهو التراب أو الطين أو الصلصال كالفخار، أو مادة الفرع، وهــو الماء المهين، وذكر في هذا الموضع أول مبادئ تعلق التخليق به وهو العلقة، فإنه كان قبلها نطفة، فأوّل انتقالها إنما هو إلى العلقة، ثمّ ذكر ثالثا التعليم بالقلم الذي هو من أعظم نعمه على عباده؛ إذ به تخلد العلوم، وتثبت الحقــوق، وتعلــم الوصــايا وتحفظ الشهادات ويضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس، وبه تقيــد أخبــار الماضين للباقين اللاحقين[1]" نرى ابن القيم في هذه الفقرة يبحــث الآيــة الكريمــة ويدرسها دراسة لغوية، ويشير إلى ما فيها، وإنّ من يلاحظ ابن القيم في كتابه يجده قوياً فيما يختص باللغة، لا يتوانى في تأييد قوله بالحجج، ثمّ يشرح بعض الكلمات ويقتفي أثرها وضاربا بالأمثلة على ما يقول، ومن ذلك قوله: مادة الأصل، وهــو التراب أو الطين أو الصلصال كالفخار، مادة الفرع: وهو الماء المهــين، التعلــيم

1- ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 239.

بالقلم: الذي هو من أعظم نعمه على عباده... فهو يشرح الكلمات، ولا يتركها مبهمة، وهذا دليل على معرفته اللغوية.

وفي موضع آخر يقول ابن القيم: "وهنا نوعان من أنواع التذلل والتعبد لهما أثر عجيب يقتضيان من صاحبهما من الطاعة والفوز ما لا يقتضيه غيرهما: **أحدهما** ذلّ المحبة، وهذا نوع آخر غير ما تقدم، وهو خاصة المحبة ولبها، بل وروحها وقوامها وحقيقتها، وهو المراد على الحقيقة من العبد لو فطن، وهذا يستخرج من قلب المحب من أنواع التقرب والتودد والتملق والإيثار والرضا والحمد والشكر والصبر والتندم وتحمل العظائم ما لا يستخرجه الخوف وحده، ولا الرجاء وحده كما قال بعض الصحابة: إنّه ليستخرج محبته في قلبي من طاعته ما لا يستخرجه خوفه، أو كما قال فهذا ذل المحبين، **الثاني:** ذل المعصية، فإذا انضاف هذا إلى هذا هناك فنيت الرسوم وتلاشت الأنفس، واضمحلت القلوب وبطلت الدعاوى جملة وذهبت الرعونات...[1]" تطرق ابن القيم في هذا المثال إلى مسألة هامة وهي التذلل والتعبد، وهما نوعان، ثم أتى على ذكرهما، وأفاض كثيرا في الشرح، ثمّ مناقشة أقوال الصحابة، وهذا دليل على معرفته اللغوية الفائقة.

ونموذج آخر، يقول ابن القيم: "وأما الضحايا والهدايا، فقربان إلى الخالق سبحانه يقوم مقام الفدية عن النفس المستحقة للتلف، فدية وعوضا وقربانا إلى الله وتشبها بإمام الحنفاء، وإحياء لسنته أن فدى الله ولده بالقربان، فجعل في ذريته باقيا أبدا، وأما الأيمان والنذور فعقود يعقدها العبد على نفسه، يؤكد بها ما ألزم به نفسه من الأمور بالله ولله، فهي تعظيم للخالق ولأسمائه ولحقه، وأن تكون العقود به وله وهذا غاية التعظيم، فلا يعقد بغير اسمه، ولا لغير القرب إليه، بل إن خلف، فباسمه تعظيما وتبجيلا وتوحيدا وإجلالا، وإن نذر فله توحيدا وطاعة ومحبة وعبودية فيكون هو المعبود وحده والمستعان به وحده، وأما المطاعم والمشارب والملابس

---

1 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 267.

والمناكح، فهي داخلة فيما يقيم الأبدان ويحفظها من الفساد والهلاك[1]" بيّن ابن القيم في هذا المثال مفهوم كل من الضحايا والهدايا، والأيمان والنذور، وذلك بأسلوب قوي وعبارات جزلة قوية تمتاز بالوضوح، والبعد عن غرابة اللفظ، ويظهر تميزه بطول النفس والمقدرة الفائقة في الإقناع.

ويقول أيضا: "وإذ قد جرى الكلام إلى الخفاش، فهو من الحيوانات العجيبة الخلقة بين خلقة الطيور، وذوات الأربع، وهو إلى ذوات الأربع أقرب، فإنه ذو أذنين ناشرتين، وأسنان ووبر، وهو يلد ولادا، ويرضع ويمشي على أربع، وكل هذا صفة ذوات الأربع، وله جناحان يطير بهما مع الطيور، ولما كان بصره يضعف عن نور الشمس كان نهاره كليل غيره، فإذا غابت الشمس انتشر، ومن ذلك سمي ضعيف البصر أخفش، والخفش ضعف البصر، ولما كان كذلك جعلت قوّته من هذه الطيور الضعاف التي لا تطير إلا بالليل[2]" يبدو في أسلوب ابن القيم أثر ثقافته الواسعة، وعلى الرغم من أنه فقيه وأصولي، إلا أنّه على دراية حتى بأبسط الأمور، وها نحن نراه يتحدث عن الطيور، وبالضبط عن الخفّاش، وهو من الحيوانات العجيبة الخلقة بين خلقة الطيور كما وصفه ابن القيم، ثم يشرح سبب تسميته بالخفاش، ومعنى الخفش، فهو حقا عالم موسوعي. **ويقول أيضا:** " ... على أنك لو تأملت قولك: "طبيعة" ومعنى هذه اللفظة لدلّك على الخالق الباري لفظها كما دلّ العقول عليه معناه؛ لأن "طبيعة" فعيلة بمعنى مفعولة أي مطبوعة، ولا يحتمل غير هذا البتة، لأنها على بناء الغرائز التي ركبت في الجسم، ووضعت فيه كالسجية والغريزة والبحيرة والسليقة والطبيعة فهي التي طبع عليها الحيوان وطبعت فيه[3]" من خلال هذا المثال يتبين أنّ ابن القيم يتمتع أيضا بمعرفة نحوية يستظهرها وقت الحاجة، فبعد أن تطرق إلى شرح كلمة طبيعة، وما تحمله من

---

1 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 325– 326.

2 - المرجع نفسه، ص 163.

3 – المرجع نفسه، ج 1، ص 197– 198.

معنى، علل ذلك بقوله: لأن "طبيعة" فعيلة بمعنى مفعولة؛ أي مطبوعة، فهي مزيج بين المعرفة النحوية واللغوية التي يتمتع بها ابن القيم.

ويقول أيضا: "وقد أخبر سبحانه أنّه خلقه من تراب، وأخبر أنّه خلقه من سلالة من طين، وأخبر أنّه خلقه من صلصال، والصلصال قيل فيه هو الطين اليابس الذي له صلصلة ما لم يطبخ، فإذا طبخ فهو فخار، وقيل فيه هو المتغير الرائحة من قولهم صل إذا انتن، والحمأ الطين الأسود المتغير، والمسنون قيل المصبوب من سننت الماء إذا صببته، وقيل المنتن المسن من قولهم سننت الحجر على الحجر إذا حككته، فإذا سال بينهما شيء فهو سنين، ولا يكون إلا منتنا، وهذه كلها أطوار للتراب الذي هو مبدؤه الأول، كما أخبر عن خلق الذرية من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة[1]" تحدث ابن القيم في هذه الفقرة عن حقيقة خلق الإنسان على أنّ الله سبحانه وتعالى خلقه من تراب، وأنّه خلقه من سلالة من طين، وأنه خلقه من صلصال، ثم أخذ ابن القيم يشرح هذه المصطلحات واحدة تلوى الأخرى بكل ما أوتي من معرفة لغوية، ومن خلال ما سبق يظهر أنّ ابن القيم كان يتمتّع بمعرفة لغوية لا تضاهى حيث يبدو في أسلوبه أثر ثقافته الواسعة، وعلى الرغم من أنّه فقيه وأصولي، إلا أنّه على دراية حتّى بأبسط الأمور، فلقد كان إذا عرضت له مسألة لغوية لم يتركها حتى يقتلها بحثا، وكان لتمكنه من اللغة يوازن بين الأقوال وإنّ من يلاحظ ابن القيم في كتابه يجده قويا فيما يختص باللغة لا يتوانى في تأييد قوله بالحجج، وقد تطرقت إلى هذه المسألة، وهي المعرفة اللغوية لابن القيم، فربّ قائل: "ما لابن القيم العالم الفقيه والأبحاث اللغوية "فأردت أن أثبت خبرته الواسعة باللغة، إلى جانب ما اشتهر به من الدراسة الشرعية، لنضم ذلك إلى ما اشتهر به فنقول: **عالم لغوي**.

---

1 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 1، ص163.

المبحث السابع: المعرفة النّحـــويّة:

وهذه خاصية أخرى من خصائص أسلوب ابن القيم؛ حيث كان إذا عــرض لمسألة متصلة بالقواعد النحوية، صال فيها وجال، كأنّه عالم متخصص مع حســن توجيه.

وأمثلة ذلك كثيرة ومستفيضة في مفتاح دار السعادة، نذكر بعضا منها: **يقول ابن القيم:** "... قالوا: والمعوّل عليه في ذلك قوله تعالى للملائكة: ﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾ (البقرة: 3) ... فأمّا من هو في دار الخلد فوق السّماء؛ فلم تتوهّم الملائكة منه سفك الدّماء والفساد في الأرض، ولا كان إظهار فضله وشرفه وعلمه وهو فوق السّماء يراد لقولهم، وجوابا لسؤالهم، بل الذي يحصل به جوابهم، وضد ما توهّموه إظهار تلك الفضائل والعلوم منه، وهو في محلّ خلافته التي خلق لهــا وتوهّمت الملائكة أنّه لا يحصل منه هناك إلاّ ضدّها من الفساد وسفك الدمّاء، وهذا واضح لمن تأمله، وأما اسم الفاعل وهو "جاعل" وإن كان بمعنى الاستقبال؛ فــلأنّ هذا إخبار عما سيفعله الرب تعالى في المستقبل مِن جَعْلِهِ الخليفة في الأرض، وقد صدق وعده ووقع ما أخبر به، وهذا ظاهر في أنّه من أوّل الأمر جعله خليفة فــي الأرض" يتحدث ابن القيم في هذه الفقرة عن حكمة الله سبحانه وتعالى في قصة آدم عليه السلام، ثمّ استطرد فيها بتحرير الخلاف حول الجنة التي اهبط منها، ولتقوية حجته استشهد ابن القيم بالآية الكريمة، ولم يكتف بذلك، بل أخــذ يــدرس الآيــة الكريمة دراسة نحوية مستظهرا معرفته النحوية، وهذه من الميزات التي اتصــف بها منهجه.

ويقول أيضا: " وقد قال تعالى في سورة الأعراف (13) لما قــال إبلــيس: ﴿**أَنَا خَيرٌ منهُ خَلَقتَنِي من نَارٍ وَخلقتَهُ مِنْ طِينٍ**﴾ و﴿**قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكبّر فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِين**﴾ فقوله: ﴿**اهْبِط مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَــكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا** ﴾ يبين اختصاص الجنّة التي في السماء بهــذا الحكــم بخــلاف جنــة الأرض، فإنّ إبليس كان غير ممنوع من التكبر فيها، والضمير في قوله: ﴿منهــا﴾

عائد إلى معلوم وإن كان غير مذكور في اللفظ لأنّ العلم به أغنى عـن ذكـره[1]"
يواصل ابن القيم حديثه في هذه الفقرة عن سيدنا آدم وإبلـيس، ولتقويـة حججـه استشهد بالآيتين الكريمتين، وها نحن نراه يدرسهما دراسة نحويـة مبينـا موقـع الضمير: ﴿**منها**﴾ حيث يقول: والضمير في قوله: "﴿**منها**﴾ عائد إلى معلوم، وإن كان غير مذكور في اللفظ، لأنّ العلم به أغنى عن ذكره".

ويقول أيضا: " ... قالوا: والضمير في قوله ﴿**اهبطوا منها**﴾ إما أن يكـون عائدا إلى السّماء كما هو أحد القولين، وعلى هذا فيكون سبحانه قـد أهبطـه مـن السماء عقب امتناعه من السجود، وأخبر أنّه ليس له أن يتكبر فيها، ثم تكبر وكذب وخان في الجنة فدلّ على أنّها ليست في السماء، أو يكون عائدا إلى الجنـة علـى القول الآخر، ولا يلزم من هذا القول أن تكون الجنة التي كـاد فيهـا آدم وغـره وقاسمه كاذبا هي تلك التي أهبط منها، بل القرآن يدل على أنّها غيرها كما ذكرناه فعلى التقديرين لا تدلّ الآية على أنّ الجنة التي جرى لآدم مع إبليس ما جرى فيها هي جنة الخلد[2]" يواصل ابن القيم في هذه الفقرة دراسة الآيـة الكريمـة دراسـة نحوية، لكن هذه المرة يناقش أقوال الطوائف، ويشرح ما ذهبت إليه كـل طائفـة وبعد العرض والتحليل يتوصل ابن القيم إلى نتيجة، قد تكون موافقـة أو مخالفـة لأقوال الطوائف.

ويقول ابن القيم: "... وممّا يدلّ على أنّها جنة الخلد بعينهـا أنّهـا جـاءت معرفة بلام التعريف في جميع المواضع كقوله: ﴿ **اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُـكَ الجَنَّـةَ**﴾ (البقرة: 35) ولا جنّة يعهدها المخاطبون، ويعرفونها إلاّ جنة الخلـد التـي وعـد الرحمن عباده بالغيب، فقد صار هذا الاسم علما بالغلبة، وإن كان في أصل الوضع عبارة عن البستان ذي الثمار والفواكه، وهذا كالمدينـة لطيبـة، والـنجم للثريـا ونظائرها؛ فحيث ورد اللفظ معرفا بالألف واللام انصرف إلى الجنـة المعهـودة

---

1 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 1، ص 168.

2 – المرجع نفسه، ص 172.

المعلومة في قلوب المؤمنين، وإمّا أن أريد به جنّة غيرها، فإنّها تجيء منكرة كقوله: ﴿**جَنَّتَيْن مِنْ أَعْنَاب**﴾ (الكهف:23) أو مقيدة كقوله ﴿**وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ**﴾ (الكهف: 39) أو مقيدة من السياق بما يدل على أنّها جنّة في الأرض كقوله ﴿ **إِنَّا بلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصرِمُنَّهَا مُصْبِحِين**﴾ (القلم: 17) فهذا السياق والتقييد يدل على أنها بستان في الأرض[1]" يدرس ابن القيم في هذه الفقرة الآيات الكريمة دراسة نحوية؛ حيث تعرض لمختلف الحالات التي وردت فيها كلمة "الجنة" سواء كانت نكرة أو معرفة، أو مقيدة، وذلك بأسلوب واضح بعيد عن الغرابة والتكلف، وتظهر أيضا مقدرته العجيبة في المناقشة، لما يتمتع به من معرفة نحوية يستظهرها وقت الحاجة. **ونموذج آخر: يقول ابن القيم:** "... فلمّا كسره سبحانه بإهباطه من الجنة جبره وذريته بهذا العهد الذي عهد إليهم؛ فقال تعالى: ﴿ **فَإِمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هدى**﴾ وهذه هي "إنّ" الشرطية المؤكدة ب "ما" الدالة على استغراق الزمان والمعنى: أي وقت، وأيّ حين أتاكم مني هدى، وجعل جواب هذا الشرط جملة شرطية، وهي قوله: ﴿ **فَمَنْ اتَّبَعَ هدَاي فَلاَ يَضَلَّ وَلاَ يَشْقَى** ﴾ (طه: 123) كما تقول: إن زرتني فمن بشرني بقدومك فهو حر وجواب الشرط يكون جملة تامة، إما خبرا محضا كقولك: إن زرتني أكرمتك، أو خبرا مقرونا بالشرط كهذا، أو مؤكدا بالقسم أو ب "إن" واللام كقوله تعالى: ﴿ **وإِنْ أَطْعَمْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُون**﴾ (الأنعام: 121) وإما طلبا كقول النبي: ﷺ "إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله " ... وأكثر ما يأتي هذا النوع مع "إذا" التي تقيد تحقيق وقوع الشرط – لسر وهو إفادته تحقيق الطلب عند تحقق الشرط – فمتى تحقق الشرط، فالطلب متحقق، فأتى ب "إذا" الدالة على تحقيق الشرط فعلم تحقق الطلب عندها، وقد يأتي مع "إن" قليلا كقوله تعالى: ﴿ **وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عملُكُمْ** ﴾ (يونس: 41) وإما جملة إنشائية كقوله لعبده الكافر: إن أسلمت فأنت حر

---

1 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 1، ص 139- 140..

ولامرأته: إن فعلت كذا فأنت طالق، فهذا إنشاء للعتق، والطلاق عند وجود الشرط- على رأي- أو إنشاء له حال التعليق، ويتأخر نفوذه إلى حين وجود الشرط - على رأي آخر- وعلى التقديرين، فجواب الشرط جملة إنشائية، والمقصود أن جواب الشرط في الآية المذكورة جملة شرطية، وهي قوله تعالى: ﴿ **فَمَنْ تَبِعَ هدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ همْ يَحْزَنُون**﴾ (البقرة: 38) وهذا الشرط يقتضي ارتباط الجملة الأولى بالثانية ارتباط العلة بالمعلول، والسبب بالمسبب، فيكون الشرط الذي هو ملزوم علة مقتضيا للجزاء الذي هو لازم، فإن كان بينهما تلازم من الطرفين كان وجود كل منهما بدون دخول الآخر ممتنعا، كدخول الجنة بلا إسلام، وارتفاع الخوف والحزن والضلال والشقاء مع متابعة الهوى[1]" يدرس ابن القيم في هذه الفقرة الآية الكريمة دراسة نحوية كافية شافية، فلا يترك شاردة ولا واردة إلا وتطرق إليها، ملما بكل الجوانب النحوية الممكنة، ضاربا بالأمثلة، ومستشهدا بآيات من القرآن الكريم، فلا يترك القارئ تائها وسط المسائل الشائكة، بل يشرحها، حتى تبدو الأمور واضحة وهذا ما لاحظناه في هذا المثال خاصة، والأمثلة السالفة الذكر عموما.

1- ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 1، ص 177- 178.

المبحث الثامن: الاقتباس من الشعـــر:

ومن خصائص أسلوب ابن القيم أيضا الاستشهاد بالشعر؛ حيث ظهـــر أثـــر الشعر في أسلوبه، فكان يقتبس منه دون أن يشعر القارئ باضطراب في الأسلوب أو قلق في العبارة، وهذه الخاصية بادية على صفحات كتابه مفتاح دار السعادة، فلا تكاد تقف على موضع إلا وتجد شعرا رائقا، ونظما فائقا، ممّا يدلّ على ذاكرته العجيبـــة في استحضاره من الشعر ما يلائم الموضوع الذي يخوض فيه، وأمثلة ذلك:

يقول ابن القيم: "وفيه تنبيه للعلماء على سلوك هدي الأنبياء وطريقتهم في التبليغ من الصبر والاحتمال، ومقابلة إساءة الناس إليهم بالإحسان والرفق بهم، واستجلابهم إلى الله بأحسن الطرق، وبذل ما يمكن من النصيحة لهم؛ فإنه بذلك يحصل لهم نصيبهم مـــن هذا الميراث العظيم قدره الجليل خطره، وفيه أيضا تنبيه لأهل العلم على تربية الأمة كما يربي الوالد ولده؛ فيربونهم بالتدريج والترقي من صغار العلم إلى كباره، وتحميلهم منه ما يطيقون، كما يفعل الأب بولده الطفل في إيصاله الغذاء إليه، فإنّ أرواح البشر بالنسبة إلى الأنبياء والرسل كالأطفال بالنسبة إلى آبائهم، بل دون هذه النسبة بكثير ولهذا كل روح لم يربها الرسل لم تفلح ولم تصلح لصالحه كما قيل:

وَمَن لاَ يُرَبيه الرَّسُول وَيَسقه   لُبَاناً لَهُ قد دَرَّ من ثَدي قُدسه
فَذَاك لَقيطٌ ماَ لَهُ نسبَةُ الوَلاَ   وَلاَ يَتَعَدَّى طَورَ أَبنَاء جنسه[1]"

يتحدث ابن القيم في هذه الفقرة عن كمال الأنبياء وعظـــم نصـــحهم للأمـــم وتمام نعمة الله عليهم وعلى أممهم، أن أزاح جميع العلل، وحسم جميع المواد التي توهم بعض النفوس أن الأنبياء من جنس الملوك الذين يريـــدون الـــدنيا وملكهـــا فحماهم الله سبحانه وتعالى من ذلك أتم الحماية، ونرى ابن القيم يستحضـــر مـــن الشعر ما يلائم هذا الموضوع؛ حيث اقتبس ابن القيم قولـــه: "فـــإنّ أرواح البشـــر بالنسبة إلى الأنبياء والرسل كالأطفال بالنسبة إلى آبائهم، بل دون هذه النسبة بكثير ولهذا كل روح لم يربها الرسل لم تفلح ولم تصلح لصالحه" من قول الشاعر:

وَمَن لاَ يُرَبيه الرَّسُول وَيَسقه   لُبَاناً لَهُ قد دَرَّ من ثَدي قُدسه
فَذَاك لَقيطٌ ماَ لَهُ نسبَةُ الوَلاَ   وَلاَ يَتَعَدَّى طَورَ أَبنَاء جنسه.

1- ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 1، ص 262.

ويقول أيضا: "فتأمل الآن موقع الكسرة التي حصلت له بالمعصية في هذا الموطن ما أعجبها، وما أعظم موقعها، كيف جاءت فمحقت من نفسه الدعاوى والرعونات وأنواع الأماني الباطلة، ثمّ أوجبت له الحياء والخجل من صالح ما عمل ثم أوجبت له استكثار قليل ما يرد عليه من ربّه، لعلمه بأنّ قدره أصغر من ذلك وأنّه لا يستحقه، واستقلال أمثال الجبال من عمله الصالح بأنّ سيئاته وذنوبه تحتاج من المكفرات والماحيات إلى أعظم من هذا؛ فهو لا يزال محسنا وعند نفسه المسيء المذنب منكسرا ذليلا خاضعا لا يرتفع له رأس، ولا ينقام له صدر، وإنما ساقه إلى هذا الذل– والذي أورثه إياه– مباشرة الذنب، فأيّ شيء أنفع له من هذا الدواء؟

لَعَلَّ عَتبَكَ مَحمُودٌ عَوَاقبُهُ وَرُبَّماَ صَحَّت الأَجسَامُ بالعلَل

ونكتة هذا الوجه أنّ العبد متى شهد صلاحه واستقامته شمخ بأنفه وتعاظمت نفسه[1]..."

يتحدث ابن القيم في هذه الفقرة عن تمام العبودية، منها أنّه سبحانه يستخرج بذلك من عبده تمام عبوديته، فإنّ تمام العبودية هو بتكميل مقام الذل والانقياد وأكمل الخلق عبودية أكملهم ذلا لله وانقيادا وطاعة، والعبد ذليل لمولاه الحق بكل وجه من وجوه الذل، ونراه يستحضر من الشعر ما يلائم الموضوع، ولكن هذه المرة ليس اقتباسا من قول الشاعر، وإنما من شعره هو؛ أي من إنشائه، وذلك لتدعيم أفكاره وتقوية حججه.

ونموذج آخر: يقول ابن القيم: " وليس حال هذا كمن ولد في الأمن والعافية والغنى والسرور؛ فإنّه لم يشعر بغيره، وربّما قيّضت له أسباب تخرجه عن ذلك إلى ضدّه، وهو لا يشعر، وربّما ظنّ أنّ كثيرا من أسباب الهلاك والعطب تفضي به إلى السلامة والأمن والعافية؛ فيكون هلاكه على يدي نفسه، وهو لا يشعر، وما أكثر هذا الضرب من الناس؛ فإذا عرف الضدين وعلم مباينة الطرفين، وعرف أسباب الهلاك على التفصيل، كان أحرى أن تدوم له النعمة ما لم يؤثر أسباب زوالها على علم، وفي مثل هذا قال القائل:

عَرَفتُ الشَرَّ لاَ للشَرّ لكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه[2]"

1- ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 268.

2 – المرجع نفسه، ص 289.

تطرق ابن القيم في هذه الفقرة إلى معرفة الأمراض والأدواء، وذكر حال الإنسان الذي ولد في الأمن والعافية والغنى والسرور؛ فإنّه لم يشعر بغيره، وربّما ظنّ أنّ كثيرا من أسباب الهلاك والعطب تفضي به إلى السلامة والأمن والعافية؛ فيكون هلاكه على يدي نفسه، ولتدعيم أفكاره استشهد ابن القيم بقول الشاعر؛ حيث اقتبس قوله:

"فيكون هلاكه على يدي نفسه، وهو لا يشعر" من قول الشاعر:

عَرَفتُ الشَرَّ لاَ للشَرّ لكن لتوقيه من لا يعرف الشر من الناس يقع فيه.

ويقول ابن القيم: "ومنها أنّه سبحانه يذيق عبده ألم الحجاب عنه والبعد وزوال ذلك الأنس والقرب ليمتحن عبده، فإن أقام على الرضا بهذه الحال، ولم يجد نفسه تطالبه بحالها الأوّل مع الله، بل اطمأنّت وسكنت إلى غيره، علم أنّه لا يصلح فوضعه في مرتبته التي تليق به، وإن استغاث استغاثة الملهوف، وتفلق تفلق المكروب، ودعا دعاء المضطر، وعلم أنّه قد فاتته حياته حقا؛ فهو يهتف بربّه أن يرد عليه حياته، ويعيد عليه ما لا حياة له بدونه، علم أنّه موضع لما أهّل له، فردّ عليه أحوج ما هو عليه إليه فعظمت به فرحته، وكملت به لذّته، وتمّت به نعمته واتّصل به سروره، وعلم حينئذ مقداره، فعض عليه بالنواجذ، وثنى عليه الخناصر وكان كحال ذلك الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا وجدها بعد معاينة الهلاك، فما أعظم موقع ذلك الوجدان عنده، ولله أسرار وحكم ومنبهات وتعريفات لا تنالها عقول البشر:

فَقُل لغَليظ القَلب وَيحكَ لَيسَ ذاَ ... بعشكَ فَادرُج طَالباً عُشَّكَ البالي

وَلاَ تَكُ ممَّن مَدَّ باَعاً إلىَ جَنىً ... فَقَصَّرَ عَنهُ قَالَ ذاَ لَيسَ بالحَالي

ولَماَّ تَذَكَّرتُ المَنَازلَ بالحمَى ... ولَم يُقضَ لي تَسليمَةُ المُتَزَوّد

تَيَقَّنتُ أَنَّ العَيشَ لَيسَ بنافَعي ... إذَا أَنَا لَم أَنظُر إلَيهَا بمَوعد[1]"

يتحدث ابن القيم في هذه الفقرة عن امتحان الرب عبده؛ فالعبد إذا بلي بعد الأنس بالوحشة، وبعد القرب بنار البعاد اشتاقت نفسه إلى لذة تلك المعاملة؛ فحنّت

---

1 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 291.

وأنّت وتصدّعت وتعرّضت لنفحات من ليس لها منه عوض أبـــدا، ولا ســيما إذا تذكّرت برّه ولطفه وحنانه وقربه، فإنّ هذه الذكرى تمنعها القرار، وتهــيج منهـــا البلابل، ولقد استحضر ابن القيم من الشعر ما يلائم هذا الموضوع.

ونموذج آخر: يقول ابن القيم: "وأما الجهاد فناهيك به من عبادة هي ســنام العبادات وذروتها، وهو المحكّ والدليل المفرق بين المحبّ والمدّعي، فالمحبّ قــد بذل مهجته وماله لربّه وإلهه، متقربا إليه ببذل أعزّ ما بحضرته، يودّ لو أنّ له بكلّ شعرة نفسا يبذلها في حبّه ومرضاته، ويودّ أنّ لو قتل فيه ثمّ أحيي ثمّ قتل، ثمّ أحيي ثمّ قتل، فهو يفدي بنفسه حبيبه وعبده ورسوله، ولسان حاله يقول:

يَفديكَ بالنَّفس صبٌّ لَو يَكوُنُ لَهُ   أَعزَّ من نَفسه شيءٌ فَدَاكَ به[1]"

يتحدث ابن القيم في هذه الفقرة عن حسن الشرائع عقلا ونقــلا، وخصــص بالذكر الجهاد في سبيل الله ورسوله، ونلاحظ في هذه الفقرة تطابق بين: "يودّ أنّ لو قتل فيه ثم أحيي ثم قتل ثم أحيي ثم قتل، فهو يفدي بنفسه حبيبه وعبده ورســوله" وشعره:

يَفديكَ بالنَّفس صبٌّ لَو يَكوُنُ لَهُ   أَعزَّ من نَفسه شيءٌ فَدَاكَ به.

ومن خلال ما سبق يظهر أنّ ابن القيم يحفظ الكثير من الشعر، ولا يستشهد بالشعر إلا من حفظ الكثير منه، واستطاع أن يستحضر ما يتناسب مع الموضــوع الذي يتكلم فيه حتى يقع استشهاده في موضعه، ووضعه في مناسبات من عباراتــه توافقه وتليق به، ولم تقتصر معرفته الشعر على حفظه والاستشهاد به بحيث يختار من محفوظه ما يتناسب والمعنى الذي يعرضه، بل كان يقول الشعر وقــد جــاءت قريحته نوعية سمّاها الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية.

---

1 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 324.



الفصـــل الثانـــي:

خصائص لغة ابن القيم من خلال مفتـــاح دار الســـعادة

المبحث الأول: البنية الصّوتية والعمق الدّلالي:

مفهوم البنية الصوتية: يستدعي مفهوم" البنية (Structure) " بهذا الإطلاق العام مفهومي "النظام" و"العلاقات" لأنّ اللغة نسق من العلامات، أو منظومة تقوم على علاقات وقواعد وعناصر ووحدات وبنى عديدة ومتضافرة، وتمتد دلالة البنية هذه لتشمل الأنظمة والقواعد والقوانين التي تأتلف على أساسها تلك الوحدات التي يتعذر على اللغة أن توجد من دونها؛ حيث إنّ البنية الصوتية ذات وحدات تأتلف لتتشكل على أساسها –وبموجبها– ظواهر اللغة المترابطة في علاقات تتسم بالتكامل والوحدة.

ولمّا كانت اللغة منظومة أو نسقاً من العلامات اللغوية، فإنّ البنية الصوتية هي أيضاً منظومة من الوحدات التي تكوّن الصوت اللغوي، وتدخل في بنائه وتكون تلك الوحدات قابلة للوصف والتحليل، وأهم تلك الوحدات ما يعرف بالفونيم.

وقد عرّف ابن جني اللغة قائلا: " أصوات يعبّر بها كل قوم عن إغراضهم[1]" وقد أفاض علماؤنا الأقدمون في دراسة هذه المادة اللغوية الصوتية؛ لأنّهم عرفوا أنّ لكل حرف: صوته صفة ومخرجا مثلما عرفوا له إيحاءه دلالة ومعنى.

ولقد لاحظ العلماء "مناسبة حروف العربية لمعانيها، ولمحوا في الحرف العربي قيمة تعبيرية موحية؛ إذ لم يفهم من كل حرف أنه صوت، وإنما عناهم من صوت هذا الحرف أنّه معبّر عن غرض، وأنّ الكلمة العربية مركبة من هذه المادة الصوتية التي يمكن حلّ أجزائها إلى مجموعة من الأحرف والدوال المعبرة، فكل حرف منها يستقل ببيان معنى خاص ما دام يستقل بإحداث صوت معين، وكل حرف له ظل إشعاع إذ كان لكل حرف صدى وإيقاع[2]" وهذا معناه أنّ اللغة في

---

1 – ابن جني، الخصائص، تح محمد علي النجار، د ط. بيروت: 1957، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، ج 1، ص 33.

2 – صبحي صالح، دراسات في فقه اللغة، ط 12. بيروت: 1989، دار العلم للملايين للنشر والتوزيع، ص 142.

شكلها الصوتي، واحد من أنظمة الإبلاغ، يقوم على وحدات متماسكة مترابطة بعلاقات وشيجة، يتم استعمالها وتؤدي وظائف عديدة بفضل تلك العلاقات، وهي وظائف أجمع أهل اللغة المعينة على طبيعتها، وأهميتها لتحقيق التواصل وفق قوانين تنتظم وتتناسق على أساسها تلك العلاقات التي تقوي الأداء الوظيفي للوحدات الصوتية، وتسهم في تنوع وظيفتها وتحسينها، وهي وحدات صوتية تتسلسل بحسَب خط الزمان ذي الاتجاه الواحد؛ فلا توجد أبداً وحدتان صوتيتان في الوقت نفسه، وفي النقطة نفسها من البلاغ.

وقد سار مصطفى صادق الرافعي في هذا الاتجاه في كتابه تاريخ آداب العرب في بحث أسرار النظام اللغوي؛ إذ يقول: "لا نريد بمعنى النظام هذه الأحكام الظاهرة في اللغة كالإعراب والتصريف والقواعد اللسانية من نحو عدم الجمع بين ساكنين أو متحركين متضادين، فهذا كله ليس إلا أسبابا للنظام الذي نشرحه في هذا الفصل، وهو يشبه النظام النفسي من حيث تعلقه بالحكمة التي تضبط عواطف النفس وخطراتها، وقد رأينا ذلك في اللغة على ثلاثة أضرب:

1- نظام الألفاظ بالمعاني،

2- نظام المعاني بالألفاظ،

3- النظام المطلق، وهو نظام القرينة أو الحس النفسي...[1]" فالنظام اللغوي في نظر مصطفى صادق الرافعي ليست الأحكام الظاهرة في اللغة كالإعراب والتصريف والقواعد اللسانية، وإنّما هو يشبه النظام النفسي من حيث تعلقه بالحكمة التي تضبط عواطف النفس وخطراتها، وقد وفق ابن القيم إلى حد كبير في تجسيد هذه النظرية في كتاباته؛ إذ يجد المتصحف لكتاباته صورته النفسية في شدته ولينه وفي سخطه ورضاه، وفي كل حالاته المختلفة... وكلّها مصوّرة في الصيغ الصوتية للألفاظ والكلمات والتراكيب الواردة في مفتاح دار السعادة، بارزة كما

---

1 – مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، د ط. بيروت: 1974، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، ص 222.

أحسّها وشعر بها وقت الكتابة، وهذا ما سأبينه عندما أتناول في هذا المبحث الخصائص الصوتية في مفتاح دار السعادة، من خلال بحث علاقات الحروف والأصوات بعضها ببعض، ثم بحث علاقات الأصوات بالكلمة الواردة في العبارة والنص، ثم بحث علاقات هذه الأصوات بالتراكيب والفواصل... أو بعبارة أخرى دراسة الحروف المستعملة في مختلف النماذج المقترحة للدراسة، لنعرف من خلال ذلك خصائص الحروف في هذا النص وخصائص الحروف في نص آخر، من حيث المخارج والصفات التي تفرزها الحروف وتميزها، ثم من حيث الأدوار الوظيفية، التي تتبع هذه الخصائص، ليتضح بعد ذلك مدى الانسجام بين سمات هذه الحروف وخصائصها، وبين الموضوعات وطبيعتها التي يطرحها ابن القيم في مفتاح دار السعادة.

وإنّ دراسة الخصائص الصوتية لمعرفة الإيقاع الصوتي أو الموسيقي يعتبر" من أهم مقومات النص الأدبي لأنّه ينقله من عالم الفكر والتحليل العقلي المجرد إلى عالم الديمومة الحركية[1]" وعليه؛ فإن هذه الدراسة تمثل مرحلة ضرورية وأساسية تتلوها مرحلة أخرى هي البنى الإفرادية من خلال بحث خصائص الكلمة ودورها ليمكن التعرف بعد ذلك بدقة على خصائص الجملة التي تتكون من عدة كلمات والكلمة بدورها تتكون من مجموعة من الحروف والأصوات.

1- الخصائص الصوتية للحروف في سياقها الإفرادي:

سنبحث في هذا القسم عن الخصائص الصوتية للحروف من حيث تحديد مخارجها وتحديد الصفات العامة التي تميزها، من شدة ورخاوة وجهر أو همس ثم نبحث علاقات هذه الحروف مع الحروف الأخرى التي تسبقها، والحروف التي تلحقها بتحديد مخارجها وصفاتها هي الأخرى، ليتبين لنا مدى التآلف والانسجام، أو

1- عبد الحميد بوزوينة، بناء الأسلوب في المقالة عند الإبراهيمي، د ط. الجزائر، د س، ديوان المطبوعات الجامعية، ص 97.

التنافر والانفصام بين الحرف والحرف الذي يسبقه، أو يليه في مختلف الكلمات والألفاظ.

وعلى هذا لا بأس أن نسوق مجموعة من الأمثلة:

يقول ابن قيم الجوزية: "... تنتقل في منازل هذا السفر منزلة منزلة حتى تبلغ غايتها منه، فأحدث ذلك السفر، بقدرة الرب القادر، اختلاف الفصول من الصيف والشتاء والخريف والربيع، فإذا انخفض سيرها عن وسط السماء، برد الهواء، وظهر الشتاء وإذا استوت في وسط السماء اشتد القيظ، وإذا كانت بين المسافرين اعتدل الزمان وقامت مصالح العباد والحيوان، بهذه الفصول الأربعة واختلفت بسببها الأقوات وأحوال النبات، وألوانه ومنافع الحيوان والأغذية وغيرها وانظر إلى القمر وعجائب آياته! كيف يبديه الله كالخيط الدقيق، ثم يتزايد نوره ويتكامل شيئا فشيئا كل ليلة، حتى ينتهي إلى إبداره وكماله وتمامه، ثم يأخذ في النقصان، حتى يعود إلى حالته الأولى ليظهر من ذلك مواقيت العباد في معاشهم وعباداتهم ومناسكهم؛ فتميزت به الأشهر والسنون، وقام به حساب العالم مع ما في ذلك من الحكم والآيات والعبر التي لا يحصيها إلا الله[1]" تكتسي هذه المقاطع النثرية بطابع موسيقي خاص ينسجم وطبيعة الموضوع، وهو وصف مسير الشمس في فلكها في مدة سنة، التي لولا طلوعها وغروبها لما عرف الليل والنهار، ولا المواقيت، ولأطبق الظلام على العالم أو الضياء ولم يتميز وقت المعاش عن وقت السبات، وقد ذكرها الله عز وجل في قوله تعالى: ﴿ **وَالشَّمسُ وَالقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمرِه أَلاَّ لَهُ الخَلقُ وَالأَمرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمين** ﴾ (الأعراف: 54) ومن خلال هذا الوصف يخيّل إلى القارئ أنه يقرأ كلاما اجتمعت فيه خصائص النظم وخصائص النثر معا.

وهذا يعود لهذه الأسباب:

- اختيار الأنماط الصوتية وحسن تركيبها فيما بينها.

---

1 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 27.

- قصر التراكيب والفواصل.
- انسجام النغم الصوتي بين الفواصل والمقاطع.

لنتأمل إذن هذه المقاطع:

تَنتَقِلُ في مَنَازِلَ هذاَ السَّفَر	←	**قصر الفاصلة**
فَأَحدَثَ ذَلكَ السَّفَر بقُدرَة الرَّب القَادر	←	**قصر الفاصلة**
فَإذَا انخَفَضَ سَيرُهَا عَن وَسَط السَّمَاء	←	**قصر الفاصلة**
برُدَ الهَوَاءُ وَظَهرَ الشّتَاءُ	←	**قصر الفاصلة**
انظُر إلَى القَمَر وَعَجَائبَ آيَاته **كَيفَ يُبديه اللهُ كَالخَيط الدَّقيق** **ثمَّ يَتَزَايَدُ نورُهُ** **وَيَتَكَاملُ شَيئًا فَشَيئًا كُلّ لَيلَة** **حَتَّى يَنتَهيَ إلىَ إبدَاره وكَمَاله وتَمَامه**	←	**انسجام صوتي بين هذه التراكيب واستقلالها عن سابقتها**

لا نكاد نجد في هذه المقاطع كلمات تقارب في مخارجها؛ لأنّها تكون حينئذ ثقيلة على السمع، متناهية في الثقل على اللسان، ويعسر النطق بها، وقد رأى علماء اللغة ومن بينهم السيوطي، أنّ أحسن البنية ما امتزجت فيه الحروف المتباعدة لتنفك عن التنافر والثقل.

فهل تحقق ذلك في النص؟ وللتأكيد على ذلك اخترنا عينة من الألفاظ الواردة في النص، ألا وهي: **(تنتقل، قدرة، الدقيق، وسط، الهواء، الشتاء القمر)**

– **تنتقل:** أصلها ثلاثي وحروفها: النون، القاف، اللام.

النون: أنفي لثوي متوسط، القاف: لهوي مهموس شديد مفخم. اللام: لثوي جانبي متوسط.

فالنون من طرف اللسان والقاف من أقصى اللسان واللام من حافة اللسان إلى الطرف.

- **قدرة:** أصلها ثلاثي وحروفها: القاف، الدال، الراء.

القاف: لهوي مهموس شديد مفخم، الدال: أسناني لثوي مرقق مجهور شديد الراء: لثوي مكرر متوسط.

القاف من أقصى اللسان، الدال من طرف اللسان، الراء من طرف اللسان.

- **الدقيق:** أصلها ثلاثي وحروفها: الدال، القاف، القاف.

الدال: أسناني لثوي مجهور شديد مرقق، القاف: لهوي مهموس شديد مفخم.

الدال من طرف اللسان، القاف من أقصى اللسان.

وقد جاءت كلمة "دقيقة" خفيفة على السمع رغم تكرار حرف القاف بالتوالي لأن القاف الأولى تختلف في حركتها عن حركة القاف الثانية، فالأولى وقعت مكسورة بحركة الكسر الطويلة، في حين وقعت الثانية مكسورة بحركة الكسرة القصيرة.

وتستمر سمة تباعد الحروف (مخارجها) في الكلمات بارزة في معظم المفردات الواردة في النص منها: **(وَسَط، الهَوَاء، القَمر، كماله، خيط، ظهر).**

- **وسط:** فالواو من الأدنى، والسين والطاء من الوسط.
- **الهواء:** فالهاء والهمزة من الأعلى، الواو من الأدنى.
- **القمر:** القاف من الأعلى، الميم من الأدنى، الراء من الوسط.
- **كماله:** الكاف من الوسط، الميم من الأدنى، اللام من الوسط.
- **خيط:** الخاء من الأعلى، الياء من الوسط، والطاء من الأدنى.

كما نجد من الكلمات ما تقاربت بعض حروفها في المخرج، ومع ذلك فهي تتفاوت في القوة والضعف، ولكنها لا تصل إلى درجة التنافر.

ومن هذه الكلمات: **(السَّفَرُ، تَمامُهُ، لَيلَةٌ، نُورُهُ، انظُر)** فهذه الكلمات الأخيرة تشترك جميعا في أنها تشمل على حروف تقاربت مخارجها كتكرار حرف السين في (السفر) وتكرار حرف الميم في (تمامه) وتكرار حرف اللام في (ليلة) واشتراك النون والراء في المخرج في (نور، انظر).

ونموذج آخر: يقول ابن القيم: "وننُبّه من مصالح النار على خلة صغيرة القدر عظيمة النفع، وهي في هذا المصباح الذي يتخذه الناس؛ فيقضون به من حوائجهم ما شاءوا من ليلهم، ولولا هذه الخلة لكان الناس نصف أعمارهم بمنزلة أصحاب القبور، فمن كان يستطيع كتابة أو خياطة أو صناعة أو تصرفا في ظلمة الليل الداجي؟ وكيف كانت تكون حال من عرض له وجع في وقت من الليل فاحتاج إلى ضياء، أو دواء، أو استخراج دمّ أو غير ذلك؟[1]" ينبه ابن القيم في هذه الفقرة عن مصالح النار؛ أي ذلك النور المحمول في ذبالة المصباح على صغر جوهره، كيف يضيء ما حول الناس جميعا؛ فيروا به القريب والبعيد، وشاءت حكمته تعالى في كونه خصّ بها الإنسان دون غيره من الحيوانات، فلا حاجة بالحيوان إليها، بخلاف الإنسان، فإنّه لو فقدها لعظم الداخل عليه في معاشه ومصالحه، وغيره من الحيوانات لا يستعملها ولا يتمتع بها.

فلنلاحظ إذن هذه الكلمات: **(مَصَالحُ، النَّفعُ، القُبُورُ، خيَاطَة، شَاءُوا، كَيفَ المصبَاحُ)**

جاءت هذه الكلمات رقيقة لطيفة عذبة على السمع هادئة، ولا تخلو كلمة من هذه الفقرة المقتبسة من حروف الهمس، وهذه الحروف المهموسة هي:

مصالح ← حرف الحاء والصاد

النفع ← حرف الفاء

القبور ← حرف القاف

خياطة ← حرف الخاء والطاء والتاء

شاءوا ← حرف الشين

كيف ← حرف الكاف والفاء

المصباح ← حرف الصاد والحاء.

ولنتأمل هذه النماذج:

---

1 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 267.

ظلمة الليل: أغلب حروف هاتين الكلمتين مجهورة وهـي (الظـاء والـلام والميم والياء) وتزداد اللام شدة بتكرارها أربع مرات، مرة في كلمة (ظلمة) وثلاث مرات في كلمة (الليل).

البعيد: أغلب حروف هذه الكلمة مجهورة، وهي الباء والعين والدال.

تصرفا: أغلب حروف هذه الكلمة مهموسة، وهي التـاء والصـاد والفـاء وحرف الراء المشدد زاد من شدة الكلمة وقوتها، فانسجم كل ذلك مع مدلول الكلمة.

وهكذا تستمر ظاهرة الانسجام الصوتي مع مدلول الكلمة، ومدلول العبـارة ومدلول الفقرة، فيأتي الجهر وشدة الصوت ليرفد ويؤكد شدة المعنى ويوحي إليه.

خلاصة: اتسمت الأبنية التي قمنا بتحليلها بحسن التأليف؛ لأنها امتزجت فيها الحروف المتباعدة التي تكون المدرج الصوتي، وقد قسمنا هذا الجهاز إلى ثلاث[1]:

1- **القسم الأعلى:** الذي يضم حروف الحلق وهي: الهمزة، الهاء، الخاء العين الغين، وكذا الحرف الحلقومي اللهوي وهو القاف.

2- **القسم الأوسط:** ويضم الحـروف الطبيعيـة وهـو حـرف الكـاف والحروف الغارية وهي: الشين، الجيم، الياء، والحروف اللثوية وهي: اللام الـراء والنون.

3- **القسم الأدنى:** ويضم المخرج الأسناني اللثـوي وحروفـه: الضـاد الدال، والطاء التاء، الزاي، الصاد، السين.

كما يضم هذا القسم أيضا الحروف الأسنانية وهي: الظاء، الذال، الثاء، وكذا المخرج الشفوي أسناني وهو: حرف الفاء، ويضم أخيرا الحروف الشفوية وهـي: حرف الباء الميم، الواو، وهكذا تراوحت أصوات الكلمات بين الشـدة والرخـاوة والقوة والضعف ليتحقق الانسجام بين مدلول الكلمة، وبين النغم الصوتي الذي تبعثه طبيعة الحرف الذي يؤلف مع غيره من حروف الكلمة.

---

1 – اقتبسنا هذا التقسيم من النظام الصوتي الفصحى المعاصرة لـ: تمام حسّان، اللغـة العربيـة معناها ومبناها، د ط. المغرب: 2001، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ص 79.

2- الخصائص الصوتية للحروف في سياقها الكلمي:

بعد أن تعرّضنا للخصائص الصوتية مفردة، وعلاقات الحروف بعضها ببعض سنتعرض لدراسة تلك الخصائص على مستوى علاقات الحروف والأصوات بعضها ببعض في إطار الكلمات، ثمّ البحث عن الأثر الدلالي لتلك الكلمة بمكوناتها وخصائصها الموسيقية والصوتية؛ لنصل إلى المعنى الذي حرص المؤلّف على إبلاغه للقارئ وإدراكه له، **يقول ابن القيم:** "قالوا: فإن كان آدم أُسكنَ جنّة الخلد، وهي دار القدس التي لا يدخلها إلا طاهر مقدس، فكيف توصّل إليها إبليس الرجس النجس الملعون المذموم المدحور، حتى فتن فيها آدم، وإبليس فاسق قد فسق عن أمر ربه وليست جنة الخلد دار الفاسقين، ولا يدخلها فاسق البتة، إنّما دار المتقين وإبليس غير تقي[1]" والعبارات المثيرة في هذه الفقرة هي: (إبليس فاسق قد فسق، دار الفاسقين، لا يدخلها فاسق) ومصدر الإثارة والتأثير في هذه الكلمات هو إيحاءاتها الصوتية، وطبيعة الحروف المكوّنة لهذه الألفاظ، وما يستتبع هذه الأصوات من دلالات متميزة توحي بالحالة النفسية والشعورية التي تتملك ابن القيم، وهو يصف إبليس الملعون الذي نعته بالفاسق.

والملاحظة الأولى التي نسجلها هنا هو تكرار كلمة فاسق أربع مرات، وكأنّ بابن القيم يريد أن يبين سخطه على إبليس، وفي تكرار كلمة فاسق دلالة صوتية مؤثرة في القارئ، وتأثيرها في النفس والوجدان إنما يأتيان من جهتين:

1- دلالتها المعجمية: "(فسق) الفِسق، العصيان والترك لأَمر الله عز وجل والخروج عن طريق الحق، فسَق يَفْسِقُ ويَفْسُقُ فِسْقاً وفُسوقاً[2]".

2- دلالتها الصوتية: وحروفها الأصلية هي الفاء والسين والقاف، وهي كلها حروف مهموسة، والمهموس في تعريف سيبويه "فحرف أضعف الاعتماد في

---

1 - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 1، ص 128.

2 – ابن منظور، لسان العرب، ط 1. بيروت، د س، دار صادر للنشر والتوزيع، ج 13، مادة فسق.

موضعه حتى جرى النفس معه... فإذا أردت إجراء الحروف، فأنت ترفع صوتك إن شئت بحروف اللين والمد، أو بما فيها منها، وإن شئت أخفيت...[1]" ومن هنا يتبين لنا السر في تكرار هذه الكلمة عما سواها من الكلمات الأخرى التي تشترك معها في الدلالة والمعنى، **وفي موضع آخر يقول ابن القيم**" ثم تأمل الحكمة في خلق النار على ما هي عليه من الكمون، والظهور لو كانت ظاهرة أبدا– كالماء والهواء– كانت تحرق العالم وتنتشر و**يُعَظّمُ** الضرر بها والمفسدة، ولو كانت كامنة لا تظهر أبدا لفاتت المصالح المترتبة على وجودها[2] " فالكلمة المثيرة في هذه العبارة هي **(يُعَظّمُ)** فقد أورد ابن القيم "يعظّم" بدلا عن غيرها من الكلمات؛ لأنّ هذه الكلمة تصوّر المعنى الوارد أكثر ممّا تصوّره كلمات أخرى ك يعمّ وينتشر... وذلك من جهتين اثنتين:

جهة الدلالة المعجمية، وجهة الدلالة الصوتية.

1– دلالتها المعجمية: جاء في المعجم الوسيط "عظم، يعظم، كبّر وفخّم[3]"

2– دلالتها الصوتية: فكلمة "يعظّم" أثرها في الأذن، ومن ثمّ على الوجدان والشعور.

فالعين ما بين الشديد والرخو، الظاء مجهور مفخم رخو، الميم أنفي شديد.

وكل هذه الصفات المصاحبة لحروف الفعل (عظم) لا شك لها دلالتها على أثر النار التي تحرق العالم، فيعم بها الفساد والضرر، فقد ذكرها الله سبحانه وتعالى وقال: ﴿ **أَفَرأَيتُم النَّارَ التّي تَرَون أَأَنتُم أَنشَأتُم شَجَرَتَهَا أَم نَحنُ المُنشئُون نَحنُ جَعَلنَاهَا تَذكَرَةً وَمَتَاعاً للمُقوِّين فَسَبح باسم رَبكَ العَظيم** ﴾ (الواقعة: 17– 74)

فهذا الفعل أنسب بكثير من الأفعال الأخرى لما يحمل من دلالة تتناسب وطبيعة الموضوع.

---

1 – سيبويه، الكتاب، تح محمد هارون، ط 4. بيروت: 1988، عالم الكتب للنشر والتوزيع، ص 23.

2 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 74.

3 – المعجم الوسيط، ج 2، مادة عظم.

ومثال آخر: يقول ابن قيم الجوزية: "إنّ الجهل كالليل في ظلمته وحندسه، والعلماء كالعباد بمنزلة القمر والكواكب الطالعة في تلك الظلمة، وفضل نور العالم فيها على نور العابد كفضل نور القمر على الكواكب[1]" ولقد شبه ابن القيم في هذا المثال الجهل بالليل، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب وهذا تشبيه مطابق لحال القمر والكواكب، فإنّ القمر يضيء الآفاق، ويمتد نوره إلى العالم، وهذه حال العالم، وأما الكواكب فنوره لا يجاوز نفسه، والكلمات المثيرة في هذا المثال هي: الجهل– ظلمة، وسنحاول أن نبين الدلالة المعجمية والصوتية لهذه الكلمات.

أ– الجهل:

1– دلالتها المعجمية: جاء في المعجم الوسيط مادة جهل: "الجهل في اصطلاح أهل الكلام اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه، والجهل البسيط عدم العلم عما من شأنه أن يكون عالما[2]".

2– دلالتها الصوتية: وحروفها الأصلية هي الجيم، الهاء، اللام. أما من حيث المخرج فهي من الأوسط إلى الأعلى ثم إلى الأوسط.

الجيم مجهور، الهاء مهموس، اللام متوسط منحرف جانبي.

ب– ظلمة:

– **دلالتها المعجمية:** جاء في الصحاح مادة ظلم " والظُّلْمَةُ: خلافُ النور والظُّلُمَةُ بضم اللام: لغةٌ فيه، والجمع ظُلَمٌ وظُلُماتٌ وظُلْماتٌ، وقد أَظْلَمَ الليل وقالوا: ما أَظْلَمَهُ وما أَضْوَأَهُ[3]".

2– دلالتها الصوتية: والحروف الأصلية لهذه الكلمة هي الظاء، اللام، الميم.

1- ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 1، ص 259.

2 – المعجم الوسيط، مادة جهل.

3 – إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح في اللغة، تح أحمد عبد الغفور عطار، د ط، بيروت د س، دار العلم للملايين للنشر والتوزيع، مادة ظلم.

فالظاء مجهور مفخم، اللام متوسط منحرف جانبي، الميم أنفي متوسط.

3- الانسجام الصوتي بين التراكيب:

*** انسجام الفواصل:**

إنّ الخاصية الأخرى التي تتميز بها البنية الصوتية في لغة ابن القيم من خلال مفتاح دار السعادة هي اختياره للفواصل المتناسقة، والأوزان المتماثلة والأصوات المتجانسة والمنسجمة بين التراكيب، أو ما يعرف **بانسجام الفواصل**؛ أي تماثل التراكيب والفواصل في طول النفس أو قصره، فالتركيب الأول يكاد يتوازن مع التركيب الثاني الذي يرتبط في المعنى والمدلول، أو يتساويان في الألفاظ والكلمات من حيث العدد والوزن؛ إذ لو قطع التركيب الأول وحدّدت تفعيلاته وأجزاؤه، لكانت هي نفسها في التركيب الثاني الذي يتصل بالأول في المعنى والمدلول، فيكمل الثاني معنى التركيب الأول، حتى يخيل للقارئ لنصوصه أنه يقرأ نظما منثورا أو نثرا منظوما.

وقد أضفى هذا الانسجام في العبارات والفواصل على نصوص ابن القيم بطابع غنائي موسيقي متميز، فيجد القارئ من خلال ذلك متعة من النادر إيجادها في كتب أخرى. وهذا ما يسمى في باب البلاغة "السجع والازدواج" وفي هذا الشأن يقول أبو هلال العسكري: "لا يحسن منثور الكلام، ولا يحلو حتى يكون مزدوجا، ولا تكاد تجد لبليغ كلاما يخلو من الازدواج، ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن، لأنّه في نظمه خارج من كلام الخلق، وقد كثر الازدواج فيه حتىّ حصل في أوساط الآيات فضلا عما تزاوج في الفواصل منه كقول الله تعالى: ﴿ **الحَمدُ لله الذي خَلَقَ السَّمَوَات وَالأَرض وَجَعَلَ الظُّلُمَات وَالنُّور**﴾ (الأنعام: 1) وأما ما زوج بينه بالفواصل فهو كثير، مثل قوله تعالى:﴿ **فَإِذَا فَرَغتَ فَانصُب وَإِلَى رَبكَ فَارَغب**﴾ (الشرح: 7-8) وقوله سبحانه: ﴿ **فَأَمَا اليَتِيمَ فَلاَ تَقهَر وَأَماَ السَّائلَ فَلاَ تَنهَر** ﴾ (الضحى: 9-10) وقوله جل ذكره ﴿ **وَأَنَّهُ هوَ أَضحَكَ وَأَبكَى وَأَنَّهُ هوَ أَحيَا** ﴾ (النجم: 43-44) ثم يقول: فكل هذا يؤذن بفضيلة التشجيع على شرط البراءة من التكلف والخلو من التعسف، والسجع على وجوه، فمنها

أن يكون الجزآن متوازنين متعادلين لا يزيد أحدهما على الآخر مع اتفاق الفواصل على حرف بعينه... ومنها أن يكون ألفاظ الجزأين المزدوجين مسجوعة فيكون الكلام سجعا في سجع، وهو مثل قول البصير: حتى عاد تعريضك تصريحا، وتمريضك تصحيحا ... وهذا الجنس إذا سلم من الاستكراه فهو أحسن وجوه السجع...[1]" وقد تبين أن ابن القيم يقتبس هذه الفنون من القرآن الكريم، ويدعّم بلاغته ببلاغة الحديث النبوي الشريف فالانسجام الصوتي بين التراكيب ثابت فيهما، والأمثلة على ذلك كثيرة جدا فمنها قوله تعالى: ﴿ **إِذَا الشَّمسُ كُوِّرَت وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَت، وَإِذَا الجِبَالُ سُيِّرَت وَإِذَا العُشَارُ عُطِّلَت وَإِذَا الوُحُوشُ حُشِرَت، وَإِذَا البِحَارُ سُجِّرَتْ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ وَإِذَا المَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ** ﴾ (التكوير: 1–9) وقال تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ الذِينَ هِمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونْ وَالذِينَ هِمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُون وَالذِينَ هِمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونْ وَالذِينَ هِمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونْ**﴾ (المؤمنون: 1–5) والأمثلة من الأحاديث كثيرة أيضا ومستفيضة منها قول الرسول ﷺ ﴿ **أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ وَاطْعِمُوا الطَّعَام وَصِلُوا الأَرْحَام وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَام تَدْخُلُوا الجَنَّةَ بِسلاَم** ﴾ وظاهرة الانسجام الصوتي بين التراكيب في مفتاح دار السعادة كثيرة ومستفيضة منها:

يقول ابن القيم: "فلم يزل ﷺ قائما بأمر الله لا يردّه عنه راد، داعيا إلى الله لا يصدّه عنه صاد، إلى أن أشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها، وتألفت به القلوب بعد شتاتها، وسارت دعوته مسير الشمس في الأقطار، وبلغ دينه ما بلغ الليل والنهار، فلما أكمل الله به الدين، وأتمّ النعمة على عباده المؤمنين، استأثر به ونقله إلى الرفيق الأعلى من كرامته، والمحل الأرفع الأسنى من أعلى جناته ففارق الأمة، وقد تركها على المحجة البيضاء، التي لا يزيغ عنها إلاّ من كان من الهالكين[2]" يلاحظ في هذه العبارة فواصل متناسقة ومنسجمة وهي:

---

1 – أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، د ط. بيروت: 1986، المكتبة العصرية، ص 260.

2 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 1، ص 105.

الفاصلة الأولى	الفاصلة الثانية
قائما بأمر الله لا يردّه عنه راد	داعيا إلى الله لا يصدّه عنه صاد
أشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها	تألفت به القلوب بعد شتاتها
وسارت دعوته مسير الشمس في الأقطار	بلغ دينه ما بلغ الليل والنهار
الرفيق الأعلى من كرامته	المحل الأسنى من أعلى جناته

يلاحظ في هذا المثال انسجام الفواصل، فالتركيب الأول يكاد يتوازن مع التركيب الثاني الذي يرتبط في المعنى والمدلول، أو يتساويان في الألفاظ والكلمات من حيث العدد والوزن.

ويقول ابن القيم: "والقلب السليم الذي ينجو من عذاب الله، هو القلب الذي قد سلم من هذا وذاك، فهو القلب الذي قد سلم لربّه، وسلم لأمره، ولم تبق فيه منازعة لأمره، ولا معارضة لأمره، ولا معارضة لخبره، فهو سليم ممّا سوى الله وأمره، لا يريد إلا الله ولا يفعل إلا ما أمره الله، فالله وحده غايته، وأمره وسيلته، ومتى كان القلب كذلك، فهو سليم من الشرك، وسليم من البدع، وسليم من الغيّ، وسليم من الباطل[1]" تكتسي هذه المقاطع بطابع موسيقي خاص، مما زادها جمالا وحلاوة وذلك لتكرار بعض الحروف في أكثر من موضع من جهة، وتناسق الفواصل من جهة أخرى، ونبين ذلك كالآتي:

الفاصلة الأولى	الفاصلة الثانية
والقلب السليم الذي ينجو من عذاب الله	هو القلب الذي قد سلم من هذا وذاك
سلم لربّه	سلم لأمره
منازعة لأمره	معارضة لأمره
لا يريد إلا الله	ولا يفعل إلا ما أمره الله
وحده غايته	أمره وسيلته

1 - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 1، ص 200.

ويقول أيضا: "إنّ العبد له قوتان: قوة الإدراك والنظر، وما يتبعها من العلم والمعرفة والكلام، وقوة الإرادة والحب، وما يتبعه من النية والعزم والعمل فالشبهة تؤثر فسادا في القوة العلمية النظرية ما لم يداوها بدفعها، والشهوة تؤثر فسادا في القوة الإرادية العملية ما لم يداوها بإخراجها[1]" فالمقاطع في كل تركيب تقابل المقاطع في التراكيب الأخرى، وهي كما يلي:

مقاطع التركيب الأول	مقاطع التركيب الثاني
قوة الإدراك والنظر	قوة الإرادة والحب
وما يتبعها من العلم والمعرفة	وما يتبعها من النية والعلم
فالشبهة تؤثر فسادا في القوة العلمية النظرية	والشهوة تؤثر فسادا في القوة الإرادية العملية
ما لم يداوها بدفعها	ما لم يداوها بإخراجها

وما يلاحظ في هذا النموذج، تماثل التراكيب والفواصل في طول النفس أو قصره. فالتركيب الأول يكاد يتوازن مع التركيب الثاني، الذي يرتبط في المعنى والمدلول أو يتساويان في الألفاظ والكلمات من حيث العدد والوزن؛ إذ لو قطع التركيب الأول وحددت تفعيلاته وأجزاؤه لكانت هي نفسها في التركيب الثاني الذي يتصل بالأول في المعنى والمدلول، فيكمل الثاني معنى التركيب الأول.

ومن كلامه أيضا: " فكلّ خائف حزين، وكل حزين خائف، وكلّ من الخوف والحزن يكون على فعل المحبوب، وحصول المكروه[2]" وما يلاحظ في هذا النموذج أيضا تماثل التراكيب في طول النفس أو قصره؛ فالتركيب الأول يكاد يتوازن مع التركيب الثاني، ونبين ذلك كالآتي:

1- ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 1، ص 196.

2 – المرجع نفسه، ص 180.

مقاطع التركيب الأول	مقاطع التركيب الثاني
فكلّ خائف حزين	وكل حزين خائف
فعل المحبوب	وحصول المكروه

وفي موضع آخر يقول: " فالحزين إنما يحزن في المستقبل على ما مضى والخائف إنما يخاف في الحال ممّا يستقبل[1]" وإذا تأملنا هذه النماذج لرأينا ذلك الانسجام الصوتي بين تركيبين صوتا وموسيقى ووزنا، وتعادلهما في عدد المقاطع والكلمات، وهذا هو أحسن وجوه السجع والازدواج عند علماء البلاغة، وعليه تتميز البنية الصوتية في لغة ابن القيم من خلال مفتاح دار السعادة بالانسجام الصوتي بين الفواصل والتراكيب ومرجع ذلك هو اختيار ابن القيم للفواصل المتناسقة والأوزان المتماثلة، والأصوات المتجانسة والمنسجمة بين التراكيب فالتركيب الأول يكاد يتوازن مع التركيب الثاني الذي يرتبط في المعنى والمدلول أو يتساويان في الألفاظ والكلمات من حيث العدد والوزن؛ إذ لو قطع التركيب الأول، وحددت تفعيلاته وأجزاؤه لكانت هي نفسها في التركيب الثاني الذي يتصل بالأول في المعنى والمدلول فيكمل الثاني معنى التركيب الأول، حتى يُخيّلَ للقارئ لنصوصه أنّه يقرأ نظما منثورا أو نثرا منظوما.

1- ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 1، ص 181.

المبحث الثاني: الخصائص الصرفية في مفتاح دار السعادة:

مدخل: للكلمة في اللغة حياة خاصة بها تشبه حياة الأحياء، فكما يعترى البشر القوة والضعف، والنشاط والخمول، كذلك تتداول هذه الخصائص المختلفة المتناقضة على الكلمة، فقد تولد كلمة معينة في حياتنا أو تولد بعدنا أو ولدت قبلنا وقد تنتشر ويتواتر استعمالها، فتشتهر أو تضمر؛ فيقل استعمالها فتنحصر، أو تموت ضمن نصوص معينة في زمن معين لا تتعداه، وقد تنبعث من جديد ليعبر بها عن معنى من المعاني.

ولهذه العوامل المختلفة يختلف الأدباء في كتاباتهم، فيسمو بعضهم عن بعض ويتفاوت الحسن والإمتاع والجودة وحسن السبك بين نص ونص آخر، وقد قال عبد القاهر الجرجاني: "فإنك تجد متى شئت الرجلين قد استعملا كلما بأعيانها، ثم ترى هذا قد فرع السماك، وترى ذلك قد لصق بالحضيض[1]" وهكذا اجتهد أهل الصناعة في اللغة العربية، فبذلوا جهدهم لاختيار الحسن من الألفاظ فاستعملوه، وأنفوا من القبيح فتجاوزوه، وليس هناك قانون محكم لإحكام هذا الاختيار والإتيان بها على غاية من الضبط، وقدر من الإحكام، وإنما استحسان الألفاظ واستهجانها يعود إلى الحس، ويرجع إلى الحس، ويرجع إلى الذوق، ولا غرو أن يكون القرآن الكريم المعيار الأول لجمال الكلمة إذا جاءت عذبة على مسمع مستقبلها، طيبة المجرى على اللسان، معتدلة في الوزن، نازلة على أحسن هيأة الإيقاع، وجاءت حروفها على قدر الضرورة، فلم يزد فيها زيادة ترهق السمع أو تسبب الملل، وإنما كان كل حرف في موضعه؛ بحيث لا يمكن أن يستغنى عنه أو يستبدل به غيره.

1- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ط 8. القاهرة: 1989، مكتبة الخانجي للنشر والتوزيع ص 48.

1- الاقتباس من المعجم القرآني:

* **مفهوم الاقتباس:** يمكن أن نعرّف الاقتباس على أنّه " أن يضمن الكلام شيئا من القرآن أو الحديث لا على أنّه منه[1]" فالاقتباس بهذا المفهوم يقتصر على القرآن الكريم والحديث النبوي؛ إذ يمكن أن يضمن كلامنا شيئا من القرآن أو الحديث لا على أنّه منه، وقد نقل جلال الدين السيوطي عن الراغب قوله: "فألفاظ القرآن الكريم هي لبّ كلام العرب وزبدته وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذّاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم، وما عداها وما عدا الألفاظ المتفرعات عنها والمنتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة، وكالحثالة والتبن بالنسبة إلى لبوب الحنطة[2]" ومعنى هذا القول أنّ سمة الاقتباس من المعجم القرآني وتغذية اللغة بكلمات من القرآن الكريم قد سمت إلى الطبقة العليا من البلاغة؛ إذ إنّ ألفاظ القرآن الكريم تعبّر عن قضايا ومدلولات ضخمة في حيز يستحيل على البشر أن يعبروا فيه عن مثل هذه الأغراض وذلك بأوسع مدلول، وأدقّ تعبير مع التناسب العجيب بين الكلمة والمدلول، وفي هذا الصدد يقول ابن القيم: "القرآن كلام الله، وقد تجلى الله فيه لعباده بصفاته؛ فتارة يتجلى في جلباب الهيبة والعظمة والجلال فتخضع الأعناق وتنكسر النفوس وتخشع الأصوات، ويذوب الكبر كما يذوب الملح في الماء، وتارة يتجلى في صفات الجمال والكمال، وهو كمال الأسماء، وجمال الصفات، وجمال الأفعال الدال على كمال الذات فيستنفد حبه من قلب العبد قوة الحب كلها بحسب ما عرفه من صفات جماله ونعوت كماله[3]" وهكذا كان القرآن الكريم دقيقا في اختيار ألفاظه وانتقاء كلماته، فإذا اختار اللفظ كان ذلك لسبب، وإذا انتقاه نكرة كان ذلك لغرض، كذلك إذا كان اللفظ مفردا كان ذلك لمقتضى يطلبه

1- عبد المتعالي الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، ج 4، ص 114.

2 - جلال الدين السيوطي، المزهر، ط 3. القاهرة، د س، دار التراث للنشر والتوزيع، ج 1 ص 201.

3 - ابن قيم الجوزية، الفوائد، د ط، بيروت، د س، المكتبة الثقافية للنشر والتوزيع، ص 30.

وإذا كان مجموعا كان لحال يناسبه، وقد يختار الكلمة ويهمل مرادفها الذي يشترك معه في الدلالة، وقد يفضل كلمة على أخرى، والكلمتان بمعنـى واحـد، وربمـا يتخطى في التعبير المحسن اللفظي والجمال البديعي على قدره وحسنه لغـرض أسمى وهو الحسن المعنوي، وكل ذلك لغرض يرمي إليه، وهكذا دائما لكل مقـام مقال في التعبير القرآني.

وسأحاول هنا أن أسجّل ظاهرة الاقتباس من القرآن الكريم في مفتـاح دار السعادة وسأحاول أيضا أن أحدد ما إذا كان ابن القيم قد التزم بالصيغ الصرفية لهذه الأسماء والأفعال كما وردت في القرآن الكريم، أم أنّه تصرف في هذه الكلمات تبعا لما تمليه عليه الفكرة والنص.

ثمّ إنّ المحاور التي سأركز عليها هي تلك التـي تـدور حولهـا الكلمـات الموظفة في لغة ابن القيم المقتبسة من القرآن الكريم لا تكاد تتعدى هذه الأركان:

أ- تطابق الصيغ الاسمية أو الفعلية بـين القـرآن الكـريم ومفتـاح دار السعادة.

ب - تصريف الألفاظ من اسمية في القرآن الكريم إلى فعلية في مفتاح دار السعادة.

ج - تصريف الألفاظ من فعلية في القرآن الكريم إلى اسمية في مفتاح دار السعادة.

د - تصريف الألفاظ من صيغ اسمية في القرآن الكريم إلى صيغ اسـمية أخرى في مفتاح دار السعادة.

ه - تصريف الألفاظ من صيغ فعلية في القرآن الكريم إلى صـيغ فعليـة أخرى في مفتاح دار السعادة.

أولا: تطابق الصيغ الاسمية بين القرآن الكريم ومفتاح دار السعادة: فمـن هذه الكلمات **قول ابن القيم:** "... ولكن اقتضت حكمته أن خلق لهم دارا يتـزودون

منها إلى الدار التي خلقت لهم، وأنهم لا ينالونها إلا بالزاد[1]" فلفظة (الزاد) تطابقت مع قول الله عز وجل: ﴿ **وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى**﴾ (البقرة: 197).

ومنها قول ابن القيم: "وباع الموفقون نفوسهم وأموالهم من الله وجعلوها ثمنا للجنة[2]" تطابقت كلمتا (نفوسهم) و(أموالهم) مع ما ورد في قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ**﴾ (التوبة:111).

وفي موضع آخر يقول ابن القيم "... فقد أخبر سبحانه خبرا محكما غير مشتبه أنّه لا يصعد إليه إلا كلم طيب وعمل صالح[3]" اقتبس قوله (كلم طيب) و(عمل صالح) من قوله عز وجل ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾ (فاطر: 10).

إلى غير ذلك من الكلمات التي يتطابق ورودها في القرآن الكريم مع ورودها في مفتاح دار السعادة تعريفاً وتنكيرًا وتذكيرًا وجمعًا وإفرادًا.

ثانيا: تطابق الصيغ الفعلية بين القرآن الكريم ومفتاح دار السعادة: يقول ابن القيم:

" ... فقد أخبر سبحانه خبرا محكما غير مشتبه أنه لا يصعد إليه إلا كلم طيب وعمل صالح[4]" اقتبس قوله (لا يصعد) من قوله عز وجل ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ﴾ (فاطر: 10).

ومنها قول ابن القيم: "والملائكة لا تقول ولا تعمل إلا بما تؤمر به لا غير[5]" فالفعل (تؤمر) متطابقة مع قوله تعالى ﴿ **وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ (النحل: 50).

وفي موضع آخر يقول ابن القيم: " تكفّل الله لمن قرأ القرآن، وعمل بما فيه أن لا يضلّ في الدنيا ولا يشقى في الآخرة[6]" فالفعلان (لا يضل) و (لا يشقى)

---

1 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 1، ص 124.

2– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3 – المرجع نفسه، ص 130.

4 – المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

5 – المرجع نفسه، ص 127.

6 – المرجع نفسه، ص 181.

متطابقان مع قوله تعالى: ﴿ **فَإِمَا يَأْتِينَكُم مِنِي هــدَى فَمَنْ اتَّبَعَ هــدَاي فَلاَ يَضَــلُّ وَلا يَشْقَى** ﴾ (طه: 123).

ثالثا: تصريف الألفاظ من اسمية في القرآن الكريم إلى فعلية في مفتاح دار السعادة:

اقتبس ابن القيم كثيرا من الكلمات القرآنية، ولكنه لم يتقيد بالتزام صيغتها في القرآن الكريم، بل نقلها من الاسمية إلى الفعلية؛ أي كانت أسماء في القرآن الكريم وصاغ منها أفعالا، وهذا ما سأحاول أن أبينه في هذا الجزء.

يقول ابن القيم: " فالغاية الحميدة التي يحصل بها كمال بني آدم وسعادتهم ونجاتهم هي معرفة الله ومحبته وعبادته وحده لا شريك له، وهي حقيقة قول العبد: لا إله إلا الله وبها بعثت الرسل، ونزلت جميع الكتب، ولا تصلح النفس و**لا تزكــو** ولا تكتمل إلا بذلك[1]" فقد أخذ ابن القيم هذا المعنى من قول الله تعــالى ﴿ **وَوَيْــلٌ لِلمُشْرِكِين الذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاة** ﴾ (فصلت: 6-7) فقد أتى بالفعل تزكو، بينمــا وردت في القرآن الكريم الزكاة.

رابعا: تصريف الألفاظ من صيغ فعلية في القرآن الكريم إلى صيغ اســمية في مفتاح دار السعادة: فهذه الحالة تختلف عن الحالة السابقة؛ حيث إنّ ابن القــيم يقتبس كلمات من القرآن الكريم مبنية على وزن من الأوزان الفعلية، ويصوغها في مفتاح دار السعادة على صيغة من صيغ الأسماء، **يقول ابن القيم:** " إنّ إبليس لــم يصل إليها، ولكن **وسوسته** وصلت[2]" فقد أخذ هذا التعبير مــن قــول الله تعــالى ﴿**فَوَسوَسَ إلَيه الشَّيطَانُ**﴾ (طه: 120) فاللفظة وسوس في القرآن الكــريم فعــل ماضي، فصاغ منه ابن القيم وسوسة، والتي جاءت مصدرا في نص ابــن القــيم. **ويقول أيضا:** "عمّ سبحانه **بالدعوة** وخص **بالهداية** المفضية إليها، فمن هــداه إليها

---

1 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 3، ص 27.

2 - المرجع نفسه، ج 1، ص 129.

فهو ممن دعاه إليها، فمن اهتدى من الجن فهو من المدعوين إليها[1]" اقتبس ابن القيم هذا المعنى من قوله تعالى ﴿ **وَاللهُ يَدْعُوا إِلىَ دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَــاءُ إِلَــى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم** ﴾ (يونس: 25) فالفعلان (يدعو) و(يهــدي) فــي الآيــة فعــلان مضارعان، بينما في نص ابن القيم مصدرين اسميين. **ويقول أيضا** " كــل مــن لا خوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة[2]" اقتبس ابن القيم هذا المعنى مــن قولــه تعالى ﴿ **فَلاَ خَوْفَ عَلَيْهِم وَلاَ هــمْ يَحْزَنُون أولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّة خَالِــدِينَ فِيهَــا جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون** ﴾ (الأحقاف: 13- 14) فالفعل (يحزنــون) فــي الآيــة الكريمة فعل مضارع، بينما صاغ منه ابن القيم في نصه (لا حزن) والــذي جــاء مصدرا اسميا.

خامسا: تصريف الألفاظ من صيغ اسمية في القرآن الكــريم إلــى صــيغ اسمية أخرى في مفتاح دار السعادة: في هذه النقطة يحتفظ ابن القــيم بالصــيغة الاسمية للكلمة الواردة في القرآن الكريم، ويصوغ منها صيغة مختلفة فــي كتابــه عندما يقوم بنقل المعنى ضمن النطاق الاسمي دائما، كأن تكون الكلمة معرفة فــي القرآن الكريم فيوردها نكرة، أو تكون في أصلها نكرة فيعرفها في كتابه، أو تكون الكلمة في القرآن الكريم في موضع رفع فترد عنده في مفتاح دار السعادة موضــع نصب أو جر أو يكون العكس، إلى غير ذلك من الحالات التي تطرأ على اســمية الكلمة في نص القرآن الكريم ونص الكتاب.

يقول ابن القيم: "... ثم أنظر إلى قطعها المتجاورات، وكيف ينزل عليهــا ماء واحد فتنبت الأزواج المختلفة المتباينة في اللون والشكل والرائحــة والطعــم والمنفعة واللقاح واحد والأم واحدة [3]" اقتبس هذا المعنى من قوله عز وجل ﴿ **وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ ونَخِيلٌ صِنْوَان وَغَيْر صِــنْوَانٍ**

1 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 192.

2 – المرجع نفسه، ص 193.

3 – المرجع نفسه، ص 32.

يُسْقَى بِماَءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعِضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يعْقِلُون﴾ (الرعد: 4).

فالكلمات (قطعها المتجاورات) تتطابق بين نص الآية ونص ابن القيم، إلا أنها وردت معرفة في نص ابن القيم، ووردت نكرة في النص القرآني.

سادسا: تصريف الألفاظ من صيغ فعلية في القرآن الكريم إلى صيغ فعلية أخرى في مفتاح دار السعادة: ويتعلق الأمر في هذه الحالة بالأفعال؛ إذ يقتبس كثيرا من الأفعال القرآنية ضمن دلالاتها؛ فينسج على منوالها في مفتاح دار السعادة، وإن كان لا يلتزم في كثير من الأحيان صيغتها الفعلية، بل ينقلها إلى صيغ فعلية أخرى، كأن ينقل الفعل من صيغة الماضي في القرآن الكريم إلى المضارع في كتابه، أو من المضارع إلى المضارع أو الأمر، أو من ضمير المفرد إلى الجمع، أو من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم، إلى غير ذلك من الحالات التي ترد عليها من مفتاح دار السعادة، كما قد يلتزم بصيغتها القرآنية، ومن أمثلة ذلك: **يقول ابن القيم:** " فأخبر تعالى أنّ ما قدمت أيديهم سبب لإصابة المصيبة إياهم، وأنّه سبحانه أرسل رسوله وأنزل كتابه[1]" فقد أخذ هذا المعنى من قوله عز وجل ﴿ **وَلَوْلاَ أَنْ تُصِيبَهُم مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِك وَنَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِين** ﴾ (القصص: 47).

فالأفعال (قدمت، أرسل) تتطابق بين نص الآية الكريمة، ونص ابن القيم وهكذا كان ابن القيم يعتمد على الأدلة المباشرة في الدفاع عن آرائه، وكان محتاجا إلى بيان قويّ وأسلوب مقنع واضح يبيّن به رأيه، وينافح به عن فكرته، وهذه السمة هي وضوح العبارة وتأكيدها أهم ما يميز أسلوبه، ولذلك يلجأ ابن القيم إلى الاقتباس من القرآن الكريم، وليس غريبا أن يكون القرآن الكريم المعيار الأول لجمال الكلمة؛ إذ جاءت عذبة على مسمع مستقبلها، طيبة المجرى على اللسان معتدلة في الوزن، نازلة على أحسن هيأة في الإيقاع، وجاءت حروفها على قدر

1- ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 3، ص 12.

الضرورة، فلم يزد فيها زيادة ترهق السمع، أو تسبب الملل، وإنما كان كل حــرف في موضعه؛ بحيث لا يمكن أن يستغني عنه أو يستبدل به غيره.

2- الترادف:

ومن السّمات المعجمية الواردة في مفتاح دار السعادة، الإكثار من الألفــاظ المترادفة. والترادف: "هو الألفاظ المفردة الدالة على شيء واحد باعتبار واحــد... والفرق بينه وبين التوكيد، أنّ أحد المترادفين يفيد ما أفاده الآخر كالإنسان والبشــر وفي التوكيد يفيد الثاني تقوية الأول...[1]" فالترادف إذن هو مجموعة مــن الألفــاظ المفردة التي تدل على شيء واحد، وفي التوكيد يفيد الثاني تقويــة الأول، أو هــو" قيام لفظ مقام لفظ لمعان متقاربة يجمعها معنى واحد كما يقال: أصلح الفاسد ولــمّ الشّعث، ورتق الفتق، وشعب الصدع، وهذا أيضا مماّ يحتاج إليه البليغ في بلاغته فبحسن الألفاظ واختلافها على المعنى الواحد، ترصع المعاني في القلوب، وتلتصق بالصدور، ويزيد حسنه وحلاوته[2]" فالترادف ذو أهمية بالغة، وهو وجه من أوجــه البلاغة، مماّ يحتاج إليه البليغ في بلاغته، فبحسن الألفاظ واختلافها على المعنــى الواحد، ترصع المعاني في القلوب وتلتصق بالصدور، ويزيد حسنه وحلاوته.

وفسر هذا الفريق ورود هذه المترادفات، ويعتلون لوجودها في اللغة " فذهب ثعلب وابن فارس، وأبو علي الفارسي إلى أنّ الاسم فيها واحد، وما سواه صــفات أشاعها الاستعمال؛ حتىّ حلّت محلّ الاسم الأول في إطلاقها على المسمى[3]" فيرى هذا الفريق أنّ الاسم واحد، وما سواه صفات أشاعها الاستعمال، فحلت مقام الاسم الأول، أمّا الفريق الثاني يشهد على أنّ اختلاف العبارات والأسماء يوجب اختلاف المعاني أنّ " الاسم كلمة تدلّ على معنى دلالة الإشارة، وإذا أشير إلى الشيء مرة

---

1 – جلال الدين السيوطي، المزهر، ص 402.

2 – المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3 – محمد حسين آل ياسين، الدراسات اللغوية عند العرب، ط 1. بيــروت: 1980، دار مكتبــة الحياة للنشر والتوزيع، ص 414.

واحدة فعرف فالإشارة إليه ثانية وثالثة غير مفيدة... فهذا يدل على أنّ كلّ اسمين يجريان على معنى من المعاني وعين من الأعيان.. فإن كلّ واحد منهما يقتضي خلاف ما يقتضيه الآخر، وإلاّ لكان الثاني فضلا لا يحتاج إليه..[1] " فالاسم حسب هؤلاء كلمة تدلّ على معنى دلالة الإشارة، وإذا ما أشير إلى الشيء مرة واحدة فعرف، فالإشارة إليه ثانية وثالثة غير مفيدة، ولكن الفريق الثالث يتوسط رأيه بين هؤلاء وهؤلاء فيرون" أنّ العربية قد امتازت بوفرة كلماتها في المعنى الواحد وليس معنى ذلك أنّ هذه الكلمات كلّها تدل على هذا المعنى الواحد بدون فروق دقيقة يلاحظها المتكلم أو السامع، لا بل بين هذه الألفاظ فروق دقيقة في الدلالة...[2]" فهذا الفريق يقرّ بوجود الترادف في اللغة، فقد امتازت بوفرة كلماتها في المعنى الواحد، مع وجود فروق دقيقة في الدلالة، ويرى هؤلاء أنّ " للشّيء المسمّى وجوها وصفات كثيرة، ويمكن أن يسمّى بأكثر من صفة من صفاته، وأن يشتق له من الألفاظ كلمات متعددة تبعا لتلك الوجوه والصفات ك: دار، منزل، مسكن، بيت وكل لفظ من هذه الألفاظ يدلّ على المقصود نفسه بأحد هذه الاعتبارات التي يقصدها المتكلم ويلاحظها...[3]" ويلاحظ هذا الفريق أنّ للشّيء المسمّى وجوها وصفات كثيرة، ويمكن أن يسمّى بأكثر من صفة من صفاته ويمكن أن يشتق له من الألفاظ كلمات متعددة تبعا لتلك الوجوه والصفات، وهكذا كان الترادف في اللغة العربية موضع أخذ ورد منذ القديم بين علماء اللغة، ففريق ينتصر لهذه الظاهرة اللغوية؛ فيثبت وجود الترادف في العربية، وأنّها تمتاز بذلك عن غيرها من اللغات العالمية الأخرى، وهناك من ينكر هذه الظاهرة، وهناك من يقف موقف وسط بينهما، فمن أمثلة الألفاظ المترادفة في مفتاح دار السعادة ما يلي:

---

1 – أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، د ط. بيروت: 1991، دار الآفاق الجديدة للنشر والتوزيع، ص 13.

2 – عبد الفتاح لاشين، صفاء الكلمة، د ط. الرياض: 1983، دار المريخ للنشر والتوزيع، ص 60.

3 – المرجع نفسه، ص 62.

يقول ابن القيم: "وإذا **نظرت** إلى الأرض وكيف خلقت، **رأيتها** من أعظم آيات فاطرها وبديعها، خلقها سبحانه فراشا ومهادا، وذللها لعباده، وجعل فيها أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم... **فتأمل** كيف استجار هذا الجسم الثقيل العظيم بهذا اللطيف الخفيف، وتعلق به حتى أمن من الغرق، وهذا كالذي يهوي في قليب؛ فيتعلق بذيل رجل قوي شديد يمتنع عن السقوط في القليب فينجو بتعلقه به، فسبحان من علّق هذا المركب العظيم الثقيل بهذا الهواء اللطيف من غير علاقة ولا عقدة تشاهد[1] " فالملاحظ في هذه الفقرة ورود الترادف في هذه الكلمات: **(نظرت رأيتها، فتأمل)** فهل هي كلمات ذات مدلول واحد، أم أن بينها فروقا دقيقة؟ وهل وفّق ابن القيم في اختيار الألفاظ الدقيقة المعبرة في هذه الجمل، وفي كل مقطع؟ ولمعرفة ذلك لابدّ أن نبحث عن دلالة تلك الألفاظ.

1- **نظر**: جاء في لسان العرب لابن منظور: " نظر، النَّظَر حِسُّ العين نَظَرَه يَنْظُره نَظَراً ومَنْظَراً ومَنْظَرة ونَظَر إليه، والمَنْظَر مصدر نَظَر الليث، العرب تقول: نَظَرَ يَنْظُر نَظَراً، قال: ويجوز تخفيف المصدر تحمله على لفظ العامة من المصادر، وتقول نَظَرت إلى كذا وكذا مِنْ نَظَر العين ونَظَر القلب[2]"

2- رأى: "رأى: الرؤية بالعين تتعدَّى إلى مفعول واحد، وبمعنى العلم تتعدى إلى مفعولين. يقال: رأى زيداً عالِماً، ورَأَى رَأْياً ورُؤْيَةً وراءَةً، مثل راعَةٍ والرَأْيُ معروف، وجمعه أراء[3]".

3- **تأمل**: "والتَّأَمُّلُ التَّثَبُّت، وتأَمَّلت الشيءَ أي نظرت إليه مُستثْبِتاً له، وتَأَمّل الرجلُ تَثَبَّت في الأَمر والنظر[4]".

---

1 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 34.

2- ابن منظور، لسان العرب، مادة نظر.

3 – الجوهري، الصحاح في اللغة، مادة رأى.

4 – المرجع نفسه، مادة أمل.

من خلال الدلالة المعجمية لهذه الألفاظ يتضح أنّ هذه الألفاظ لم تأت في هذا النسق للتعبير عن شيء واحد أو مدلول بعينه، بل كل كلمة وردت في مقطعها لتدل على معنى أدق، فلا يمكن إذن أن نضع أحد المترادفات في مقطع غير الذي وردت فيه من مقاطع نصها، وإذا أتينا إلى ترتيب هذه الكلمات فهي كالآتي:

الكلمة	المعنى
(نظر)	حِسُّ العين والقلب
(رأى)	الرؤية بالعين، وبمعنى العلم
(تأمل)	التَّأَمُّلُ التَّثَبُّت

وهذه الكلمات مرتبة وفقا لما تمليه مراحل الرؤية والنظر.

فالمرحلة الأولى هي النظر إلى الأرض وكيف خلقت، وهي نظرة بالعين والقلب معا ثم تتلوها مرحلة ثانية، وهي نظرة أكثر تأملا وهي العلم والإدراك وأخيرا نظرة أكثر تأملا من الثانية، وهي التأمل والتثبت، وفي المثال نفسه يتبين أن ابن القيم يورد العديد من المترادفات وهي: (فراشا ومهادا) و(أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم).

وفي موضع آخر يقول ابن القيم: "ثم انظر الحكمة البالغة في تركيب العظام **قواما** للبدن و**عمادا** له، وكيف قدرها **ربّها** و**خالقها**...[1]" فالملاحظ في هذه العبارة ورود الترادف في الكلمتين: (ربها، خالقها) و(قواما وعمادا له) والعبارتان يجمعها معنى واحد. **ويقول أيضا:** " ... ثم جملهما بالأجفان **غطاء** لهما و**سترا** و**حفظا** **وزينة** ولمنافع أخرى وراء **الجمال والزينة** [2]" فالملاحظ في هذه العبارات ورود الترادف في هذه الكلمات (غطاء، سترا، حفظا) و(الجمال والزينة).

---

1 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 8.

2 – المرجع نفسه، ص 9.

وفي موضع آخر يقول ابن القيم: "وإذا نظرت إلى الأرض وكيف خلقت رأيتها من أعظم آيات فاطرها، خلقها سبحانه **فراشا ومهادا**، وجعل فيها **أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم**، وأرساها بالجبال... **فمدها وبسطها** [1]" فالترادف يظهر في الكلمات:

(فراشا، مهادا) و(أرزاقهم، أقواتهم، معايشهم) و(مدها، بسطها).

ويقول أيضا: "ثم انظر إلى عجائب السفن وسيرها في البحر تشقه وتمخره بلا **قائد** يقودها، ولا **سائق** يسوقها، وإنما قائدها وسائقها الرياح التي يسخرها الله لإجرائها[2]" فالكلمات المترادفة هي (تشقه وتمخره) و(قائدها وسائقها).

ويقول أيضا: "ونصب سبحانه قصبة الأنف في الوجه فأحسن **شكله وهيأته ووضعه** وفتح فيه المنخرين، وحجز بينهما بحاجز، وأودع فيهما حاسة الشم التي تدرك بها أنواع الروائح **الطيبة الزكية، والخبيثة الضارة**، وليتنشق به الهواء فيوصله إلى القلب فيتروح به ويتغذى[3]" فالكلمات المترادفة هي (شكله وهيأته ووضعه) و (الطيبة الزكية) و (الخبيثة والضارة) إلى غير من المترادفات الواردة في مفتاح دار السعادة.

ومن خلال ما سبق، يمكن القول إنّ ابن قيم الجوزية يورد العديد من المترادفات للمسمى الواحد، حتى بدا ذلك ظاهرة من الظواهر اللغوية التي يمكن ملاحظتها بجلاء في كتابه، وقد يكون من الأسباب التي أملت عليه ذلك ما يلي:

أولا: رغبته في إظهار براعته اللغوية، وكان هذا جليا في كتابه مفتاح دار السعادة خاصة وفي مؤلفاته الأخرى عامة.

ثانيا: مراعاة السجع مماّ جرّه ذلك إلى استغلال الترادف للتوسع في الكلام ثم لتلافي تكرار نفس اللفظ في الفقرة الواحدة كقوله: "... ثم إنّه سبحانه ربط تلك

1 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 31.

2 – المرجع نفسه، ص 43.

3 – المرجع نفسه، ص 11.

الأعضاء والأجزاء بالرباطات، فشدّ بها أسـرها، وجعلهـا كالأوتـار، تمسـكها وتحفظها[1]" فالترادف ملاحظ بين كلمتي (شد، ربط).

3- الاشتقاق:

تتميّز اللغة العربية بألفاظها التي يتوالد بعضها من بعض باستمرار لمسايرة كل جديد، فالاشتقاق بهذا الاعتبار برهان على نزعة الحرّيّة، وهي حرية مضبوطة ومنظّمة، وتؤدي العربيّة بهذه الطريقة الحيّة وظيفتها في الحياة؛ إذ تقابل كل مولود جديد حسياً كان أو معنويا بمولود جديد مثله، ونقل صاحب المزهـر عـن شـرح التسهيل: "الاشتقاق أخذ صيغة من أخرى، مع اتفاقهما معنى ومادة أصلية، وهيئـة تركيب لها ليدلّ بالثانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة لأجلهـا اختلفـا حروفـا وهيئة[2]" فالاشتقاق بهذا المفهوم هو أخذ صيغة من أخرى شرط اتفاقهما في المعنى والمادة الأصلية، مع الزيادة المفيدة والاختلاف في الحروف والهيأة ويحـدد ابـن عصفور الاشتقاق في باب "ما يدخله التصريف وما لا يدخلـه" بقولـه: "اعلـم أنّ التصريف لا يدخل في أربعة أشياء، وهي الأسماء الأعجمية التي عجمتها شخصية ك "إسماعيل" ونحوه، لأنها نقلت من لغة قوم لـيس حكمهـا كحكـم هـذه اللغـة والأصوات ك "غاق" ونحوه، لأنها حكاية ما يصوت به، وليس لها أصـل معلـوم والحروف، وما شُبه بها من الأسماء المتوغلة في البناء نحو "من" و "ما" لافتقارها بمنزلة جزء من الكلمة التي ندخل عليها...[3]" ومن خلال هذا يتبين أنّ التصريف لا يدخل في أربعة أشياء، وهي: الأسماء الأعجمية والأصوات التي ليس لها أصـل معلوم، الحروف، وما شُبه بها من الأسماء المتوغلة في البناء ك من وما ويؤكـد السيوطي أنّ "اشتقاق العرب من جواهر الألفاظ قليل جدا، والأكثر من المصـادر

---

1 - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 15.

2 - جلال الدين السيوطي، المزهر، ج 1، ص 346.

3 - ابن عصفور، الممتع في التصريف، ط 4. بيـروت: 1979، دار الآفـاق الجديـدة للنشـر والتوزيع، ج 1، ص 35.

ومن الاشتقاق من الجواهر قولهم: استحجر الطين، استنوق الجمل..."[1] وهكذا اتجه العرب إلى الاشتقاق من المصادر أكثر من اشتقاقهم من جـواهر الألفـاظ وإلـى خلاف هذا الرأي يذهب بعض الدارسين فيقرون أن كلمات اللغة جميعا مشتقة بهذا الاعتبار: "وقالت طائفة من المتأخرين اللغويين كل الكلم مشتق، ونسب ذلك إلـى سيبويه والزجاج[2]" وهكذا تعتبر طائفة من المتأخرين اللغـويين أنّ كلمـات اللغـة جميعا مشتقة، وفي هذا الصدد يقول تمام حسان: "فما دام لكلّ كلمة مـن كلمـات العرب مادة تصاغ منها، فلها اشتقاق منسوب إلى هذه المادة، ولا يبقى في الصرف ما يسميه الصرفيون الاسم الجامد[3]" فيرى تمام حسان أنّ لكلّ كلمة مـن كلمـات العرب مادة تصاغ منها، فلها اشتقاق منسوب إلى هذه المادة، وعليه فلا يبقى فـي الصرف ما يسميه الصرفيون الاسم الجامد، وهكذا تتضارب الآراء حول ظـاهرة الاشتقاق، وإذا كان الرأيان الأخيران يتباينان في تعميم الاشتقاق أو تحديده، فـإلى أيّ رأي يميل ابن القيم؟ وبعد الدراسة والتمعن في مفتاح دار السعادة، تبين أن ابن القيم رأيه إلى رأي الفريق الثاني أقرب، وخصائصه في الاشتقاق أمران:

أ- **اشتقاق مصادر وأفعال من جواهر الألفاظ:** إنّ اللغة العربيـة لا تـزال تجري على قواعد يمكن أن تنزل منزلة السنن الطبيعية في الحياة، بحيث لا تـأبى في عصر من العصور أن يضاف إليها شيء من المستحدثات الزمنية؛ فكما تبسّط الأولون فيها حتى بلغت بهم من السعة، وجاء القرآن الكريم من ألفـاظهم نفسـها وأجراه فيما لم يستعملوه، ولا لهم به عهد وهو معجزة القوم، وفصـحت الألفـاظ المولدة وأسماء المستحدثات العلمية، حتى ألحقت بمادة اللغة بعد ذلك، كذلك يمكـن للأدباء والكتاب والعلماء في كل زمان أن يتبسطوا فيها بما يستحدثونه من معـان

---

1 - جلال الدين السيوطي، المزهر، ج 1، ص 350.

2 - المرجع نفسه، ص348.

3 - تمام حسان، مناهـج البحـث في اللغـة، د ط. المغـرب: 1986، دار الثقافـة للنشـر والتوزيع، ص 218.

وأشياء ليحق للغة؛ إذ ذاك أن تكون لغة العصر ... وإنما يتأتى ذلك ويصحّ بملاحظة ما تنص عليه طبيعة اللغة من أوزانها وقواعدها وطرق الوضع والاستعمال فيها، وأمثلة هذا الباب في مفتاح دار السعادة مايلي:

أ1- اشتقاق أفعال من جواهر الألفاظ: يقول ابن القيم: "وأما حسن الزكاة وما تضمنته من مواساة ذوي الحاجات والمسكنة والخلة من عباد الله الذين يعجزون عن إقامة نفوسهم، ويخاف عليهم التلف إذا خلاهم الأغنياء وأنفسهم، وما فيها من الرّحمة والإحسان والبر والطهرة، وإيثار أهل الإيثار والاتصاف بصفة الكرم والجود والفضل والخروج من سما أهل الشح والبخل والدناءة: فأمر لا **يستريب** عاقل في حسنه ومصلحته، وإنّ الآمر به أحكم الحاكمين[1]" ونلاحظ في هذا المثال اشتق ابن القيم الفعل يستريب من المصدر ريب.

وجاء في المعجم الوسيط: "استراب – يستريب: رأى منه ما يريبه، والريب: الظن والشك والتهمة[2]" ومعنى هذا القول أن ليس يجوز في العقل ولا في الفطرة البتة أن ترد شريعة من الحكيم العليم بضد ذلك أبدا.

أ2- اشتقاق مصادر من جواهر الألفاظ:

*** اشتقاق مفرد مؤنث من المطر: يقول ابن القيم:** "فإذا تأملت **السّحاب** الكثيف المظلم كيف تراه يُجتمع في جوّ صاف لا كدورة فيه، وكيف يخلقه الله متى شاء، وإذا شاء وهو مع لينه ورخاوته حامل للماء الثقيل بين السماء والأرض إلى أن يأذن له ربه وخالقه في إرسال ما معه من الماء، فيرسله وينزله منه مقطعا بالقطرات... يرشّ السحاب الماء على الأرض رشا، ويرسله قطرات مفصلة لا تختلط قطرة منها بأخرى ولا يتقدم متأخرها ولا يتأخر متقدمها[3]" اشتق ابن القيم في هذا المثال مفرد مؤنث من المطر وهو السحاب، وقد وردت هذه الكلمة في صحيح

1 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 321.

2 – المعجم الوسيط، ج 2، مادة ريب.

3 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 164.

مسلم عن النبي ﷺ قال: " بينما رجل بفلاة من الأرض إذ سمع صوتا في سحابة: اسق حديقة فلان، فمرّ الرجل مع السحابة حتى أتت على حديقة، فلمـا توسّـطتها أفرغت فيها ماءها، فإذا برجل معه مسحاة يسحي الماء بها فقال ما اسمك يا عبـد الله؟ قال: فلان، للاسم الذي سمعه في السحابة...[1]"

ب – اشتقاق الصيغ الدقيقة للمعاني الدقيقة: وقد وفق ابن القيم في انتقـاء الكلمات والصيغ الدقيقة التي لا تقل أو تزيد عن مقاس المعاني التي يريد إيصالها غير منقوصة، بل تصور المعنى تصويرا دقيقا لا يقوم مقامها لفظ آخر.

يقول ابن القيم: " ونكتة هذا الوجه أنّ العبد متى شهد صـلاحه واسـتقامته شمخ بأنفه و**تعاظمت** نفسه ... فإذا ابتلي بالذنب **تصاغرت** إليه نفسه[2]" والألفاظ التي تستوقف القارئ هي قوله **(تعاظمت– تصاغرت)** فالأولى على وزن تفاعلت، وأصل الكلمة عظم – يعظم – عظمة.

وجاء في المعجم الوسيط مادة عظم: " تعـاظم فـلان: تصـنع العظمـة[3]" وتعاظمت هنا أوفق من عظمت؛ لأن النفس إذا تعاظمت، أوجبت له الحياء والخجل من صالح ما عمل، ثم أوجبت له استكثار قليل ما يرد عليه من ربه، لعلمـه بـأن قدره أصغر من ذلك وأنّه لا يستحقه، والثانية على وزن تفاعلت، وأصـل الكلمـة صغر– يصغر– صغر.

وجاء أيضا في المعجم الوسيط مادة صغر: " تصاغر فلان، سـلك مسـلك الصغار تصاغرت إليه نفسه: صغرت في عينه ذلا ومهانة[4]" وتصاغرت هنا أوفق من صغرت؛ لأن إذا تصاغرت إلى العبد نفسه، فسـيئاته وذنوبـه تحتـاج مـن

---

1 – صحيح مسلم (2984).

2 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 269.

3 – المعجم الوسيط، ج 2، مادة عظم.

4 – المرجع نفسه، ج 1، مادة صغر.

المكفرات والماحيات إلى أعظم من هذا، فهو لا يزال محسنا، وعند نفسه المسيء المذنب منكسرا ذليلا خاضعا لا يرتفع له رأسه لا ينقام له صدر.

نستنتج من هذه الأمثلة أنّ ابن القيم كان يطعمّ لغته بألفاظ تتناسب وطبيعة الموضوع الذي يغوص فيه، وكل هذه الألفاظ نابعة من طبع ابن القيم، فقد كان ذا طبع صارم تصدر عنه الألفاظ الصارمة، حتى في المواقف التي تقتضي ألفاظا لينة وهذه الألفاظ المدوية ترجع إلى طبعه وتفكيره ونمطه، فقد كان ابن القيم ذا طبع صارم ونفس ثائرة فلا يجد وسيلة للتعبير عما يجيش في نفسه إلا هذه الألفاظ القوية، ثم يرى منها ضربا من الافتخار لأنها قوية، والقوة عنوان الفحولة والرجولة.

المبحث الثالث: نظام التراكيب في مفتاح دار السعادة:

مدخل: نعني بدراسة التراكيب في هذا الفصل إحصاء مجموعة من الظواهر التي يتميز بها بناء الجمل في مفتاح دار السعادة، من حيث التقديم والتأخير والذكر والحذف... وغيرها من الظواهر التي تتصل بالبناء الداخلي للجمل من جهة وتتصل من جهة أخرى بالكشف عن علاقات بناء التراكيب بين نصوص ابن القيم.

وإنّ الباحث في كتب النحاة القدامى لا يجد بابا اسمه الجملة، بل سيصطدم بمصطلحات مرادفة لها: الكلام مثلا، أو يجد أبوابا تتحدث عن أجزائها منفصلة كباب الفعل، وباب المنصوبات والمضاف إليه ... ولا نكاد نجد في هذه الكتب تعريفا للجملة بقدر ما اهتم هؤلاء النحاة بتحليل أجزائها، وسرد أقسامها وأنواعها وإذا كانوا تعرضوا لتعريف الكلام والكلم، فإنهم لم يبينوا العلاقة بين الكلام والجملة، أهُمَا مترادفان أم هناك فرق بينهما، ومثلما اختلف العلماء في تعريف الجملة اختلفوا في تقسيماتها باختلاف منطلقاتهم، فهناك الاسمية والفعلية والإنشائية والخبرية والظرفية والشرطية، والجملة الصغرى والكبرى والمجردة والموسعة والتامة والناقصة... وأساس هذا التمييز بين النوعين اعتبار العنصر الأول الذي

تتألف منه الجملة، فإذا ابتدأت باسم سميت جملة اسمية، وإن ابتدأت بفعل سميت جملة فعلية.

أمّا النظام النحوي، فهو "جوهر دراسة علوم العربية وأصل من أصول تفكير العلماء العرب، وهو يشكّل وشيجة متينة تربط عناصر النظام اللغوي بعضها مع بعض، وتمثل الضوابط والأحكام التي ينبني عليها الكلام، وتتضح بها المعاني[1]" فالنظام النحوي بهذا المفهوم هو لب الدراسات اللغوية، على اعتبار أنّه قلب الأنظمة اللغوية جميعها وواسطة العقد بينها، فهو الذي يصل بين الأصوات والمعاني.

1- التقديم والتأخير:

لكل لغة من لغات البشر نسق معين في ترتيب الكلام، يلتزمه المتكلم في كلامه ويرتبط بالتسلسل المنطقي والتدرج الذهني، فمن المعروف في اللّغة العربية أن يأتي المبتدأ وبعده الخبر، والفعل وبعده الفاعل، وأن يتأخر المفعول عن الفاعل وهذا النسق المنظم يعتمد على المنطق السليم وحسن الإدراك، ولكن ما نفكّر فيه أحيانا لا يتم بهذا الترتيب الطبيعي، بل يحدث فيه تقديم وتأخير يرتبطان بما في أذهاننا من اهتمامات، وما في إدراكنا من ميل إلى التعبير من إحساس نريد نقله للآخرين بصورة مقنعة مؤثرة، فيقول الجرجاني: "هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف بعيد الغاية لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي لديك موقعه، ثمّ تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدّم الشيء، وحوّل اللفظ من مكان إلى مكان"[2] فيرتبط تعبير نسق الكلام تقديما وتأخيرا، بتغيير إدراكنا للأمور وبما يكون في أنفسنا من رغبات وتبيين قدرة أصحاب البلاغة والبيان حين يستخدمون هذه الغاية المعنوية للتقديم والتأخير في تحقيق هدف آخر، وهو روعة

---

1 – فارس محمد عيسى، علم الصرف منهج في التعليم الذاتي، ط 1. عمان: 2000، دار الفكر للنشر والتوزيع، ص 33.

2 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 84- 85.

موسيقى العبارة، واكتمال جمالها الفني ومراعاة التناسق بين العبارات جميعا، وقد أفرد أهل اللغة والنحو منذ القديم أبوابا خاصة للتقديم والتأخير في كتب النحو والبلاغة، فقد بيّن سيبويه العلة في التقديم والتأخير بقوله: "كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم وهم ببيانه أعنى، وإن كان جميعا يهمانهم ويعنيانهم[1]" وهكذا يعدّ التقديم والتأخير واد من أودية البلاغة، وكنز من كنوز البيان، ولقد وضّح الإمام عبد القاهر الجرجاني علّة التقديم والتأخير بقوله: "لأنك تقتضي في نظمها آثار المعاني وترتبها على حسب ترتب المعاني في النفس... والفائدة في معرفة هذا الفرق أنّك إذا عرفته عرفت أنّ ليس الغرض بنظم الكلم، أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها، وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل...[2]" فترتيب الألفاظ حسب عبد القاهر الجرجاني تأتي حسب ترتب المعاني في النفس، وليس الغرض بنظم الكلم، أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل، والقارئ لمفتاح دار السعادة سيجد عناية كبيرة بهذه المسألة، مسألة التقديم والتأخير، والتي تدور حول المحاور التالية:

- تقديم الخبر على المبتدأ.
- تقديم المفعول على فاعله.
- تقديم الظرف على الفعل....

ولبيان أهمية التقديم والتأخير، نقوم بتحليل بعض الأمثلة الواردة في مفتاح دار السعادة، **يقول ابن القيم:** "في الشتاء تغور الحرارة في الأجواف وبطون الأرض[3]" يمثل هذا التركيب بناء إسناديا لأنّه يتضمن عناصر الإسناد التي ينبغي أن تتوفر في التراكيب الأساسية للغة العربية، ممثلة في الجمل الفعلية والجمل الاسمية، وعناصر الإسناد هي المسند (م) والمسند إليه (م إ) والمتمم (مم).

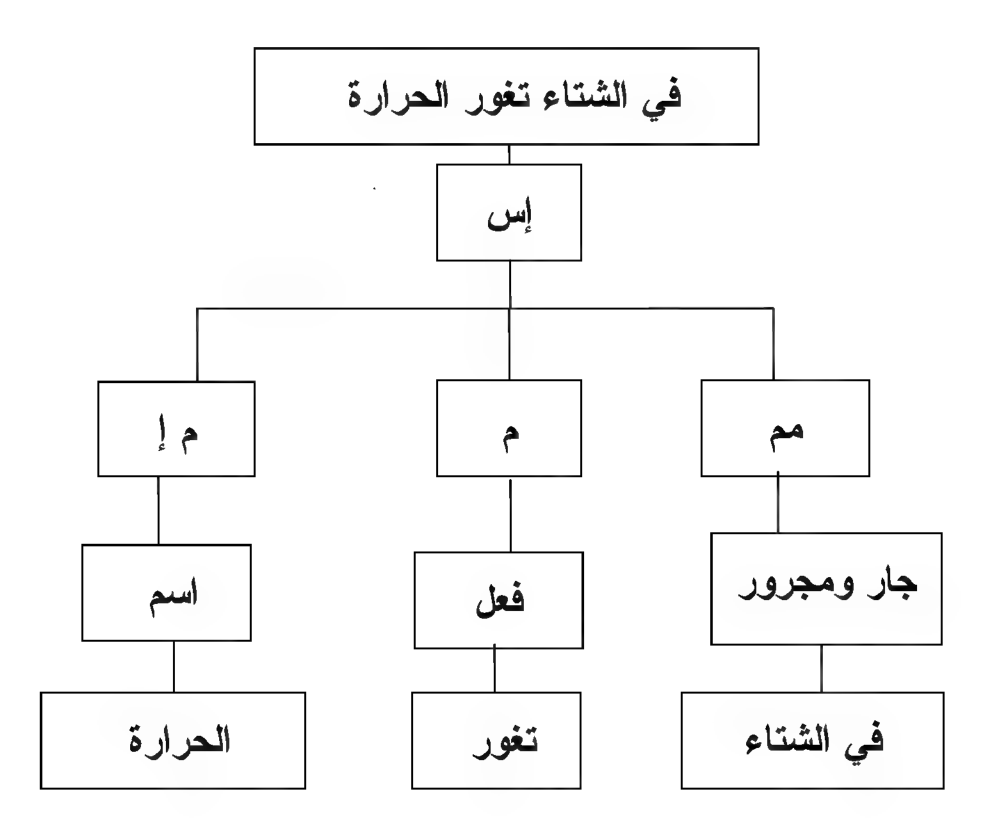
---

1 – سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 34.

2 – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 49– 50.

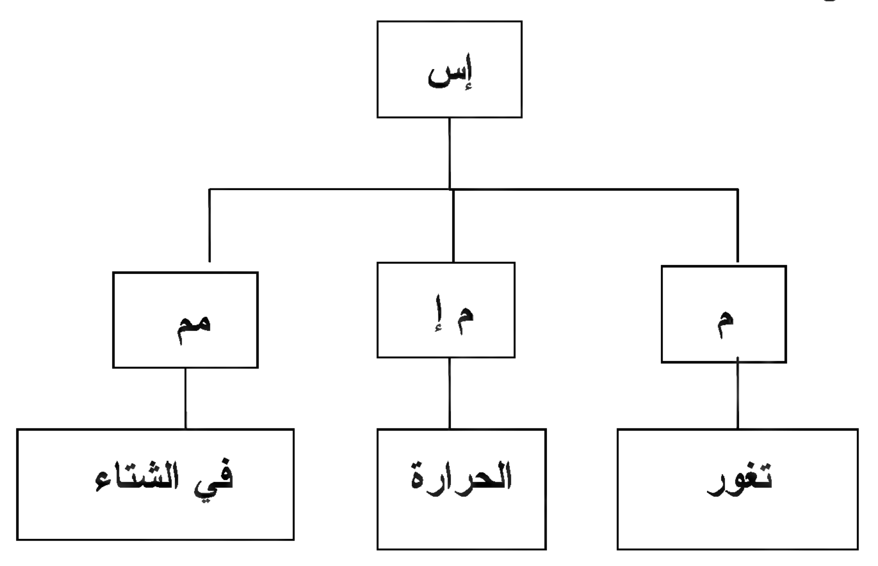
3 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 52.

ويبقى تقديم المسند والمسند إليه أحدهما على الآخر راجعا إلى نمط الجملة من اسمية أو فعلية، ويمكننا تحديد نمط هذه الجملة (اسمية أو فعلية) وتحديد رتبة المكونات الأساسية للمثال بهذا المشجر البياني المعتمد لدى المدرسة اللسانية الحديثة، وهي المدرسة التحويلية التوليدية.



فهذه الجملة فعلية بناء على التحليلين القديم والحديث، وهي جملة فعلية لدى القدماء لأن المسند قد سبق المسند إليه، وهما الفعل وفاعله (تغور الحرارة) وهي كذلك عند المحدثين؛ لأنها تضمنت فعلا بصرف النظر عن كونه سابق لفاعله أم لاحق.

ويمكن أن نسجل ملاحظة أخرى، وهي تقدم المتمم (مم) على رتبتـــه، فقـــد ورد في صدر الكلام، والأصل في رتبته أن يرد في آخر الكلام كما هـــو مبين في هذا الشكل:



ويدخل المتمم التركيب العربي كركن إضافي يسهم في تحديد معنى الكـــلام ويأتي بعد الفعل وفاعله، ويقول سيبويه: " ... إلاّ أنّك إذا أردت الإلغـــاء، فكلمـــا أخّرت الذي تلغيه كان أحسن، وإذا أردت أن يكون مستقرا تكتفي به، فكلما قدمتـــه كان أحسن... [1]" ومعنى هذا أنّ في تركيب الجملة العربيـــة عناصـــر يمكننـــا أن نلغيها، وكلما أخّرنا الذي نلغيه كان أحسن، وإذا أردنا عكس ذلك تكتفي به، فكلمـــا قدمناه كان أحسن.

ويضيف: "والتقديم ههنا والتأخير فيما يكون ظرفا أو يكون اسما في العناية والاهتمام مثله فيما ذكرت لك في باب الفاعل والمفعول، وجميع ما ذكرت لك من التقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار عربي جيد كثير، فمن ذلك قوله عـــز وجـــل:

1- سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 57.

﴿**وَلَم يَكُن لَهُ كُفُوًا أَحــد**﴾[1]" فالتقديم والتأخير يشمل حتى الظروف والأسماء، وهي عربي جيد. وقد حدد عبد القاهر الجرجاني التقديم على وجهين: "تقديم يقـال إنـه على نية التأخير وذلك في كل شيء أقررته مع التقديم على حكمه الذي كان عليـه وفي جنسه الذي كان فيه كخبر المبتدأ إذا قدمته على المبتدأ، والمفعول إذا قدمتـه على الفاعل كقولك "منطلق زيد" "و" ضرب عمرا زيد "معلوم أن "منطلق" و"عمرا" لم يخرجا بالتقديم عما كانا عليه، من كون هذا خبر مبتدأ ومرفوعا بذلك... وتقديم لا على نية التأخير، ولكن على أن تنقل الشيء من حكم إلى حكم، وتجعل له بابـا غير بابه، وإعرابا غير إعرابه... أن تنقله عن كونه خبرا إلى كونه مبتدأ[2]" ومـن هنا يتبين أن تقديم الشيء على الشيء ضربان: تقديم على نية التأخير، وذلك فـي شيء أقرّ مع التقديم على حكمه الذي كان عليه، كتقديم الخبـر علـى المبتـدأ، أو المفعول على الفاعل، وتقديم لا على نية التأخير ولكن على أن ينقل الشـيء عـن حكم إلى حكم، ويجعل له إعرابا غير إعرابه، كما في اسمين يحتمل كل منهما أن يجعل مبتدأ والآخر خبرا له، فيقدم تارة هذا على ذاك وأخرى ذاك على هذا، فمـا علة التقديم في المثال الذي أوردناه؟

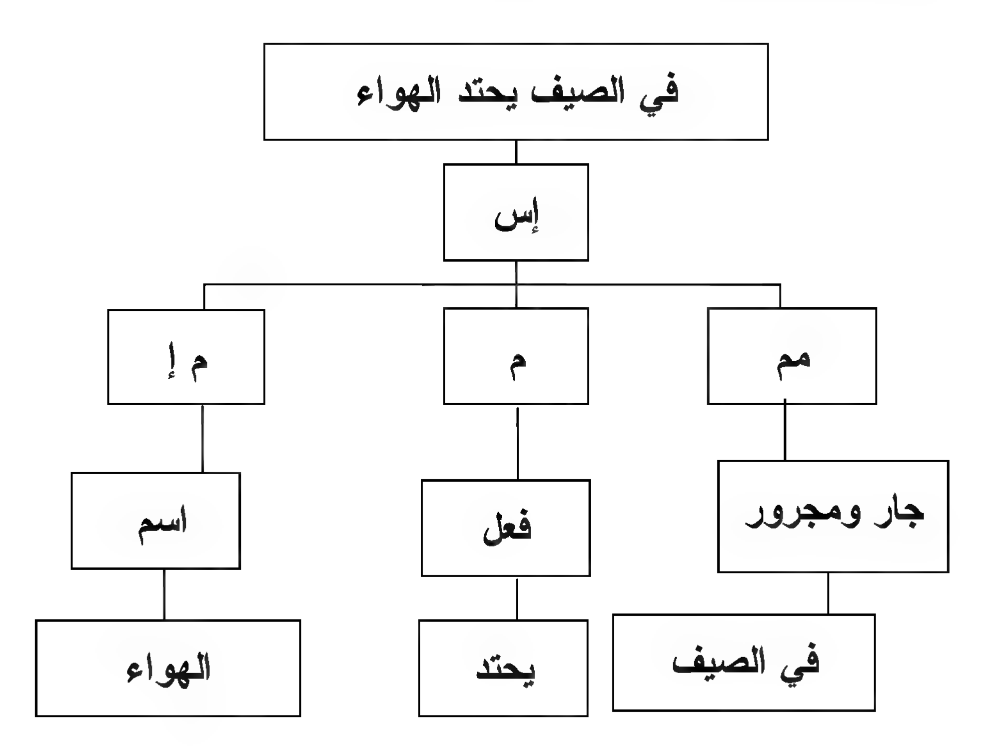
لعل المعنى المتضمن في هذه العبارة هو تأكيد ابن القيم شدة الحرارة فـي الأجواف وبطون الأرض في فصل الشتاء، والتناقض في آن واحـد؛ لأن فصـل الشتاء يعرف بالبرودة وتدني درجة الحرارة فيه، وإن كان الأمر كذلك فكيف تغور الحرارة في فصل الشتاء؟ فيلاحظ أن التقديم في عبارة ابن القيم هـو تقديم علـى نية التأخير؛ إذ لم يخرج هذا المتمم المقدمة عن حكمها الذي كانت عليه، وجنسـها الذي كانت فيه، فهي حركة تحويلية للركن اللغوي (متمم− مم −) الـذي احـتفظ بدوره ووظيفته الدلالية، وحركته الإعرابية.

---

1 − سيبويه، الكتاب، ج 1، الصفحة نفسها.

2- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 106.

وشبيه هذا المثال قول ابن القيم: "وفي الصيف يحتد الهواء، ويسخن جدا فتنضج الثمار وتتحل فضلات الأبدان...[1]" و يمثل أيضا هذا التركيب بناء إسناديا لأنه يتضمن عناصر الإسناد التي ينبغي أن تتوفر في التراكيب الأساسية للغة العربية ممثلة في الجمل الفعلية والجمل الاسمية، وعناصر الإسناد هي المسند (م) والمسند إليه (م إ) والمتمم (مم) وسنقوم بتحديد نمط هذه الجملة (اسمية أو فعلية) وتحديد رتبة المكونات الأساسية لهذا المثال.

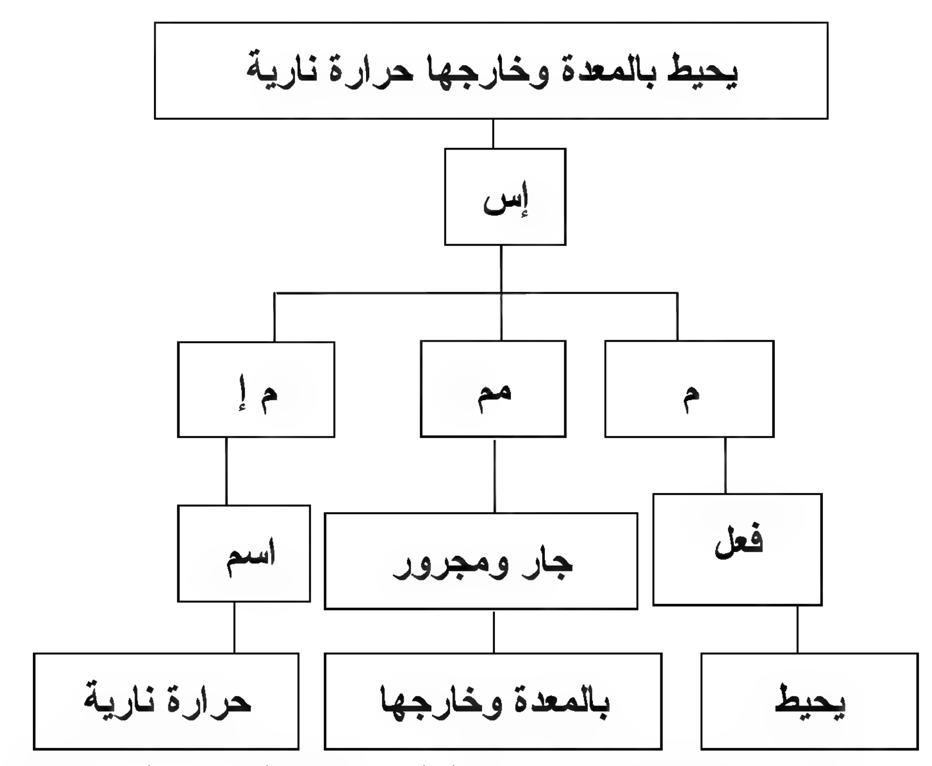


فهذه الجملة فعلية، لأن المسند قد سبق المسند إليه، وهما الفعل وفاعله (**يحتد الهواء**).

1 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 52.

ويقول ابن القيم: "يحيط بالمعدة وخارجها حرارة نارية، بل ربما تزيد على حرارة النار[1]" يمثل هذا التركيب بناء إسناديا؛ لأنه يتضمن عناصر الإسناد، وهي المسند (م) والمسند إليه (م إ) والمتمم (مم). وسنقوم أيضا بتحديد نمط هذه الجملة (اسمية أو فعلية)، وتحديد رتبة المكونات الأساسية لهذا المثال.

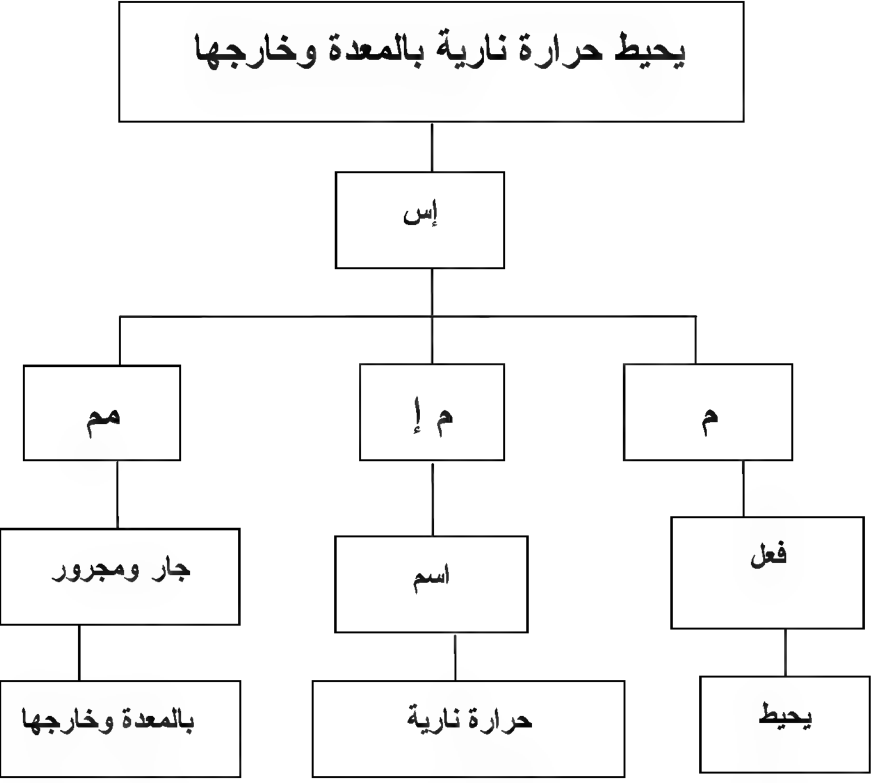
ويمكن أن نسجل ملاحظة أخرى، وهي تقدم المتمم (مم) على رتبته، فقد ورد في وسط الكلام، والأصل في رتبته أن يرد في آخر الكلام كما هو مبين في هذا الشكل:



يلاحظ في هذا المثال تقديم المتمم (مم) عن الفاعل (المسند إليه) والمفروض أن يرد في آخر الكلام، وعليه يكون الترتيب كالآتي:

---

1 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 21.



نموذج آخر عن التقديم والتأخير: يقول ابن القيم: "من آياته الباهرة هذا الهواء اللطيف[1]" ما يلاحظ في هذا المثال تقديم الخبر (م) وهو (من آياته الباهرة) عن المبتدأ (م إ) وهو (هذا الهواء اللطيف) والمفروض أن ترد الجملة كما يلي: هذا الهواء اللطيف من آياته الباهرة.

ومثال آخر: يقول ابن القيم: "والأقوال إذا تعارضت وتعذّر الترجيح، كان دليلا على فسادها وبطلانها[2]" يلاحظ في هذا المثال تقديم الفاعل (م إ) وهو (الأقوال) عن الفعل (م) تعارضت، ومن سنن ترتيب الجملة الفعلية في اللغة العربية أن ترد الجملة وفق هذا الترتيب: فعل + فاعل + مفعول به. وعليه فترتيب

---

1 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 33.

2- المرجع نفسه، ج 3، ص 49.

هذه الجملة يكون كالآتي: وإذا تعارضت الأقوال... ويظهر جليا أنّ ابن القيم يميل كثيرا في لغته إلى التقديم والتأخير، وتتبين قدرته في البلاغة والبيان، حين يستخدم هذه الغاية المعنوية للتقديم والتأخير في تحقيق هدف آخر، وهو روعة موسيقى العبارة، واكتمال جمالها الفني، ومراعاة التناسق بين العبارات جميعا.

2- الذكر والحذف:

* **الذّكر والحذف:** إنّ الذّكر والحذف ثنائية تركيبية تتعلق بظواهر النقص والزيادة في العبارة، وقد جعل منهما القدماء طرفين منحرفين عن وسط هو النمط أو الأساس المثالي، وهو ما أطلقوا عليه اسم المساواة، ويعرّف الإمام عبد القاهر الجرجاني الذكر والحذف، بقوله: "هو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن[1]" وهكذا يتبين أن الذكر والحذف من الأبواب الطريفة في اللغة العربية الذي أتحف أساليبها واكسبها البلاغة والبيان، وعلى قدر معرفة الكاتب والشاعر للأماكن التي يحسن فيها الذكر أو الحذف، تبين مكانته في الفصاحة، وامتلاك ناصية البيان.

* **الحذف:** نسق من أنساق الأداء يكون العدول عنه فسادا، كما في قوله تعالى: ﴿ **لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**﴾ (القيامة: 1- 2) ومن الملاحظ أننا لا نجد جواباً للقسم الذي ابتدأت به السورة، وإنما نجد ما يدل عليه وهو هذه الآية فجواب القسم محذوف ويقدره النحاة (لتبعثن) وهذا الحذف يتناسب هو والعجلة التي دلت عليه النفس اللوامة وجوها أي جو العجلة - الذي طبعت به السورة، وقد تناوله القدماء ومن بينهم ابن جني، وبيّنوا أماكنه في اللغة الفنية؛ إذ إنه يعترى " الجملة والمفردة والحرف، والحركة[2]" فالحذف في رأي ابن جني يعتري الجملة والمفردة والحرف، والحركة، وقد يتناول الحذف أيضا المبتدأ (م إ)

1 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 146.

2 - ابن جني، الخصائص، ج 2، 360.

وقد يتناول الخبر أو الفعل (م) كما يمكن أن يتناول المتمم (مم) وهو يتناول الكلمة والكلمتين، أو العبارة والفقرة...

* **الذكر:** فهو ما يقابل الحذف، وقد تتمركز فيــه عناصــر الإبــداع؛ إذ لا تقتصر على الحذف وحده، ويكثر ذكر المبتدأ، الضمير، عند الحديث عن الصفات الإلهية والأسماء الحسنى، كما جاء في قوله تعالى:﴿ **هوَ الذي لاَ إلَــهَ إلاَّ هـــوَ المَلكُ القدُوس السلم المُؤمنُ المُهَيمنُ العزيز الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ سُبحَانَ اللَــه عَمَّــا يُشركُون هوَ اللهُ الخَالقُ البَارئ المُصَوّرُ لَهُ الأَسمَاء الحُسنَى** ﴾ (الحشر:23- 24) فصرح الله تعالى بذكر الضمير ست مرات ليكون لكل اسم من الأسماء الحســنى ترسيخ في نفس سامعه بارتباطه بمبتدئه المذكور، وفيه توضيح أكبر لتلك الأسماء الحسنى مع هذا الذكر، وهذه الفائدة المعنوية للذكر تعضدها فائدة موسيقية تتجلــى في التناسق الموسيقي المتأني منه، وكل هذه الحالات ملاحظة في نصــوص ابــن القيم من خلال مفتاح دار السعادة.

يقول ابن القيم: "فانظر الآن إلى النطفة بعين البصيرة، وهي قطرة من ماء مهين ضعيف مستقذر، لو مرت بها ساعة من الــزمن فســدت وأنتنــت، كيــف استخرجها رب الأرباب العليم الخبير من بين الصلب والترائــب منقــادة لقدرتــه مطيعة لمشيئته... كيف جمع سبحانه بين الذكر والأنثى وألقى المحبة بينهما، كيف قادها بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع الذي هو سبب تخليق الولــد وتكوينــه كيف قدر اجتماع ذينك الماءين مع بعد كل منهما عن صاحبه، وساقهما من أعماق العروق والأعضاء، وجمعها في موضع واحد، جعل لهما قرارا مكينا لا يناله هواء يفسده، ولا برد يجمده، ولا عارض يصل إليه، ولا آفة تتسلط عليه..."[1] يمثل هــذا المثال مجموعة من التراكيب الإسنادية، والذي يعنينا منها هو تلك المركبات التــي يحذف منها المسند أو المسند إليه أو المتمم.

---

1 - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 6-7.

فجملة (استخرجها رب الأرباب) قد اكتمل فيها أركان الإسناد وهي (م– م إ – مم).

بينما يلاحظ الحذف في هذه الجمل:

–كيف جمع سبحانه بين الذكر والأنثى ...

–كيف قادها بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع...

–كيف قدر اجتماع ذينك ...

فما هو المحذوف هـنا؟ أهو (م) أم (م) أم (مم)؟

ولمعرفة ذلك لابد من وجود الدليل على المحذوف "وهو أهمّ شروط الحذف فلا بدّ من وجود قرينة تدل على العنصر أو العناصر التي يريدها المتكلم، ويستغنى عن ذكرها بدلالة القرينة[1]" فالقرينة إذن شرط من شروط الحذف، فـلا بـد مـن وجودها لتدل على العنصر أو العناصر التي يريدها المتكلم، ويستغنى عن ذكرهـا بدلالة القرينة.

فالمحذوف في هذه الجمل هو الفاعل (م إ) وهو "رب الأرباب" كما حـذف فعل الأمر "انظر" (م) والقرينة التي تدل عليه هـي قولـه: " فـانظر الآن إلـى النطفة...كيف استخرجها رب الأرباب العليم ".

ويمكن تقدير المحذوفات كما يلي:

1 – انظر كيف جمع رب الأرباب سبحانه بين الذكر والأنثى...

2 – انظر كيف قادها رب الأرباب بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع...

3 – انظر كيف قدر رب الأرباب اجتماع ذينك...

إنّ الذكر والحذف من الأبواب الطريفة في اللغة العربية، وهي خاصية من خصائص لغة ابن القيم، مما أتحف أساليبها، وأكسبها البلاغة والبيان، وعلى قـدر

---

1 – طاهر سليمان حمودة، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، د ط. الإسكندرية: 1999، الـدار الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع، ص 112.

معرفة ابن القيم للأماكن التي يحسن فيها الذكر أو الحـذف، تبـين مكانتـه فـي الفصاحة، وامتلاك ناصية البيان.

3- الاستثناء والقصر:

عرّف ابن مالك في التسهيل الاستثناء والقصر بقوله: "هو المخرج تحقيقا أو تقديرا من مذكور، أو متروك ب إلا أو ما في معناها، بشرط حصول الفائدة[1]"

أو هو "الإخراج ب إلاّ أو إحدى أخواتها لما كان داخلا في الحكم السـابق عليها[2]" فالاستثناء بهذا المفهوم هو المخرج تحقيقا أو تقديرا من مذكور أو متروك بأداة النفي إلا أو ما في معناها، أو بإحدى أخواتها شرط حصول الفائدة، والاستثناء عند أبي الهلال العسكري على " ضربين: أحدهما أن تأتي معنـى تريـد توكيـده والزيادة فيه فتستثني بغيره، فتكون الزيادة التي قصدتها، والثاني استقصاء المعنى والتحرز من دخول النقصان فيه...[3]" فالاستثناء في نظر أبي الهلال العسكري على ضربين: أحدهما توكيد المعنى والزيادة فيه، والثاني استقصاء المعنى والتحرز من دخول النقصان فيه.

أما ابن هـشام فيقول: "ويستثنى ب" ليس "أو ب" لا يكون "أو ب" ما خـلا "أو ب" ما عدا "طلقا، أو ب إلاّ بعد كلام تام موجب، أو غيـر موجـب، وتقـدم المستثنى نحو ﴿ **فَشَرِبُوا منهُ إلاَ قَليلا منهم** ﴾ (البقرة: 249) وغير الموجـب: إن ترك فيه المستثنى منه فلا أثر فيه ل إلاّ ويسمى مفرغا...[4]" من خلال هذا القـول يتضح أنّ أدوات الاستثناء كثيرة، ويستثنى ب إلا بعد كلام تام موجـب، أو غيـر

---

1 – ابن هشام، أوضح المسالك، ط 5. بيروت، د س، دار الجيل للنشـر والتوزيـع، ج 2، ص 249.

2 – عباس حسن، النحو الوافي، ط 9. القاهرة، د س، دار المعارف للنشر والتوزيـع، ج 2، ص 316.

3 – أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص 408.

4 – ابن هشام، شرح شذور الذهب، د ط. بيروت، د س، دار الجيل للنشر والتوزيع، ص 259.

موجب وتقدم المستثنى، وغير الموجب إن ترك فيه المستثنى منه، فلا أثر فيـــه ل إلا ويسمى مفرغا، ومن معاني الاستثناء إفـــادة القصـــر، والقصـــر تخصـــيص الموصوف عند السامع بوصف دون ثان، كقولك: زيد شاعر لا منجم، لمن يعتقده شاعرا ومنجما، وللقصر طرق أربعة:

● " **أحدهما:** طريق العطف، كما في قصر الموصوف على الصفة إفرادا أو قلبا حسب مقام السامع: عمر شاعر لا منجّم، وما عمر منجم بل شاعر.

●**ثانيهما:** النفي والاستثناء، كما تقول في قصر الموصوف علـــى الصـــفة إفرادا أو قلبا: ليس زيد إلا شاعرا، أو ما زيد إلا شاعر، وقوله تعـــالى: ﴿ **ومـــا محمد إلا رسول** ﴾ (آل عمران: 144).

●**ثالثها:** استعمال إنّما: كما تقول في قصر الموصوف على الصفة: إنما زيد جاء...

رابعها: التقديم كما تقول في قصر الموصوف على الصفة: تميمي أنـــا...[1]"

ومن خلال هذا يتّضح أنّ من معاني الاستثناء إفادة القصر، وله طرق أربعة وهي: طريق العطف، النفي والاستثناء، استعمال إنما، التقديم: كمـــا تقـــول فـــي قصـــر الموصوف على الصفة.

وأمثلة الاستثناء والقصر في مفتاح دار السعادة كثيرة ومستفيضـــة، ومـــن ذلك قول ابن القيم: "... إنّ كمال النفس وسعادتها المستفاد عن الرسل صلوات الله عليهم ليس عندهم اليوم منه حسّ، ولا خبر، ولا عين، ولا أثر، فهم أبعد الناس من كمالات النفوس وسعادتها، وإذا عرف ذلك، وأنّه لا بد للنفس من مـــراد محبـــوب لذاته لا تصلح إلا به، ولا تكتمل إلا بحبه وإيثاره، وقطع العلائق من غيـــره، وأنّ ذلك هـــو النهاية وغاية مطلوبها ومرادها الذي إليه ينتهي الطلب، فليس ذلك إلا الله الذي لا اله إلا هـــو قال تعالى: ﴿ **أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هم يَنْشُرُون لَوْ كَانَ**

---

1 – السكاكي، مفتاح العلوم، ط 1. بيروت: 1983، دار الكتـــب العلميـــة للنشـــر والتوزيـــــع ص 288.

فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء: 21-22) وليس صلاح الإنسان وحده وسعادته إلا بذلك، بل وكذلك الملائكة والجنّ، وكل حيّ شاعر لا صلاح له إلا بأن يكون الله وحده إلهه ومعبوده وغاية مراده[1]" والطريق الذي يسلكه ابن القيم في هذه الفقرة هو الاستثناء بأداة النفي "لا" أو "ليس" و"إلا " حتى غدا ذلك واضحا بجلاء في كتابه، ومن الملاحظ أيضا في هذه الأمثلة أنّ ابن القيّم يبدأ بالأسلوب التقريري المباشر، ويعدل عنه بأسلوب الاستثناء، لا لشيء سوى أنّ الاستثناء يخدم المعنى من جهتين:

أولا: أن تأتي معنى تريد توكيده والزيادة فيه فتستثني بغيره، فتكون الزيادة التي قصدتها.

ثانيا: استقصاء المعنى والتحرز من دخول النقصان عليه...

وإذا تأملنا هذه الفقرة المقتضبة من نص ابن القيم، فسنجد أنّ ابن القيم كان يحيط بهذه المعاني الدقيقة، والفروق اللغوية والدلالية لأدوات الاستثناء، وكل الأدوات الأخرى ويجيد توظيفها في الكتابة؛ فتغدو المعاني والألفاظ لا يتجاوز بعضها بعضا، وعندما يثبت ابن القيم للقارئ هذه المعاني، وكأنّني به يخاطب من يجهلها، بل وينكرها وهي الفئة الغالبة من المسلمين في زمانه وفي غير زمانه، أو كأنني به يقدمها لمن سينكرها عليه، وهو إثباته أنّ لا كمال للنفس ولا سعادة لها إلا بحب الله عز وجل الذي لا إله إلا هو، ولعل هذا الحسّ الذي أثبتناه لابن القيم تدل عليه أشياء كثيرة منها:

أولا: ما يدل عليه السياق في بداية الكلام؛ إذ يقول: إنّ كمال النفس وسعادتها المستفاد عن الرسل – صلوات الله عليهم– ليس اليوم منه حس، ولا خبر ولا عين ولا أثر، فهم أبعد الناس من كمالات النفوس وسعاداتها.

ثانيا: تكرار أسلوب الاستثناء في الفقرة السابقة (لا...إلاّ) و(ليس... إلاّ).

ومن أمثلة الاستثناء أيضا في مفتاح دار السعادة ما يلي:

---

1 - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 3، ص 33.

يقول ابن القيم: "من المعلوم بالضرورة أنّه ليس في السّماء حمل ولا ثور ولا حية ولا عقرب ولا دب ولا كلب ولا ثعلب، إلا أنّ المتقدمين لما قسموا الفلك إلى اثني عشر قسما، وأرادوا أن يميزوا كل قسم منها بعلامة مخصوصة: شبهوا الكواكب المذكورة في تلك القطعة المعينة بصورة حيوان مخصوص، تشبيها بعيدا جدا[1]" والطريق الذي يسلكه ابن القيم في هذه الفقرة هو الاستثناء بأداة النفي "ليس" و"لا" وإلا.

ويقول أيضا: "حاجة الناس إلى الشريعة ضرورية فوق حاجتهم إلى كل شيء، ولا نسبة لحاجتهم إلى علم الطب إليها، ألا ترى أنّ أكثر العالم يعيشون بغير طبيب، ولا يكون الطبيب إلا في بعض المدن الجامعة...[2]" والطريق الذي يسلكه ابن القيم في هذه الفقرة هو الاستثناء بأداة النفي "لا" و"إلا".

وإذا تأملنا هذه النماذج المقتضبة من نصوص ابن القيم، فسنجد أنه يحيط بالمعاني الدقيقة، والفروق اللغوية والدلالية لأدوات الاستثناء، وكل الأدوات الأخرى، ويجيد توظيفها في الكتابة؛ فتغدو المعاني والألفاظ لا يتجاوز بعضها بعضا، وعندما يثبت ابن القيم للقارئ هذه المعاني، وكأنّني به يخاطب من يجهلها بل وينكرها، وهي الفئة الغالبة من المسلمين في زمانه وفي غير زمانه.

---

1 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 3، ص 48.

2 – المرجع نفسه، ج 2، ص 319.

4- مُشاكَلة الأساليب القرآنية وتضمين تراكيبه:

* **مفهوم المُشاكلة:** يعرّف الدكتور عبد القادر عبد الجليل المشاكلة قـائلا: "المشاكلة **لغة:** المماثلة والموافقة والنظير، **اصطلاحا:** ذكر الشـيء بغيـر لفظـه لوقوعه في صحبته وبنيتها تؤكد المدار التكراري[1]" وهي سمة أخرى في مؤلفـات ابن القيم؛ حيث يقتبس من القرآن الكريم أساليبه العاليـة ويضـمن تراكيبـه؛ لأنّ القرآن الكريم يتخير حروف الكلمة وينتقي أصواتها صافية الذوق فـي مخارجهـا لذيذة السماع طيبة المجرى على اللسان معتدلة في تأليفها، خفيفة في الفـم، نازلـة على أحسن هيئة في الإيقاع، قوية الإيحاء، شديدة البعث لما تتضمّنه من المعـاني المرادة، والأهداف المقصودة من الآية الكريمة.

وهذا الكتاب المقدس الذي لقي من أهله تقديسا، فلا يكادون يدينون بإعجـاز كتاب آخر له مثل هذه المكانة، وقد انفرد به من أساليب لم يألفها أهله، وإن كـانوا أهل هذه اللغة التي نزل بها، ولهم وحدهم الحقّ في التصرف فيهـا بمـا تجعلهـا طبيعية سهلة عليه، ومنح القرآن الكريم اللغة العربية قوة ورقياً ما كانت لتصل إليه لولا القرآن الكريم، بما وهبها الله من المعـاني الفيّاضـة، والألفـاظ المتطـورة والتراكيب الجديدة والأساليب العالية الرفيعة، فأصبحت بذلك محطّ جميع الأنظـار والاقتباس منها مناط العزّ والفخّار، وغدت اللغة العربية تتألق وتتباهى على غيرها من اللغات بما حازت عليه من محاسن الجمال وأنواع الكمال.

ومشاكلة الأساليب القرآنية وتضمين تراكيبه واضحة في مفتاح دار السعادة في مواضع كثيرة، منها: **يقول ابن القيم:** "أخبر تعالى أنّ ما قدّمت أيـديهم سـبب لإصابة المصيبة إياهم، وأنّه سبحانه أرسل رسوله وأنزل كتابـه[2]" وفـي القـرآن الكريم ما يشبه هذا النسق كقوله تعالى: ﴿ **وَلَوْلاَ أَنْ تُصِيبَهُم مُصِيبَةٌ بِمَـا قَـدَّمَتْ**

---

1 - عبـد القـادر عبـد الجليـل، الأسلوبيـة، ط 1. عمـان: 2002، دار صـفاء للنشـر والتوزيع، ص 535.

2 - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 3، ص 15.

أَيْدِيهِم فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبع آيَاتكَ ونَكُون مِنَ المُــؤْمِنِين﴾ (القصص: 47)

فلنلاحظ العبارات الواردة في النص:

- قدمت أيديهم: جاءت هذه العبارة تماما كما وردت في الآية الكريمة.
- أرسل: توافق زمني بين النص والآية الكريمة.

ويقول أيضا: "ولهذا كان من آمن بالله خالقه ورازقه وربه ومليكــه، ولــم يؤمن بأنّه لا إله يعبد، ويحب ويخشى ويخاف غيره، بل أشرك معه فــي عبادتــه غيره، فهو كافر به مشرك شركا لا يغفره الله[1]" وقريبا من عبارة ابن القــيم قولــه تعالى: ﴿ **إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ** ﴾ (النساء: 116).

وفي موضع آخر يقول ابن القيم: "فأخبر أنّ من أحبّ شيئا سوى الله مثل ما يحب الله، فقد اتّخذ من دون الله أندادا[2]" أخذ ابن القيم هذا المعنى من قوله تعــالى: ﴿**ومنَ النَّاسِ مَنْ يَتَخِذ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّوَنُهْم كَحُبِّ اللهِ**﴾ (البقــرة: 165). **ويقول أيضا:** "فالتوحيد من أقوى أسباب الأمن من المخاوف، والشرك من أعظــم حصول المخاوف، ولذلك من خاف شيئا غير الله سلط عليه، وكان خوفه منه هــو تسليطه عليه، ولو خاف الله دونه، ولم يخفه، لكان عدم خوفه منه وتوكله على الله من أعظم أسباب نجاته منه[3]" والملاحظ في هذه العبارة قصر الفواصل، وكل هــذه الفواصل أفعال وأسماء، فيلاحظ تكرار الفعل "خاف" ثلاث مرات، وتكرار كلمــة "المخاوف" مرتان، وكلمة "الخوف" مرتان، وكلها ذات دلالة واحدة، وهي الخوف. وفي القرآن الكريم ما يشبه هذا النسق كقوله تعالى: ﴿ **وكَيْفَ أَخَافُ ماَ أَشْرَكْتُمْ بِهِ وَلاَ تَخَافُونَ إِنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ ينزل بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيّ الفَــرِيقَيْن أَحَــقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُون﴾** (الأنعام: 81).

---

1 – ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 3، ص 28.

2– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3– المرجع نفسه، ص 387.

ويقول أيضا: " تأمّل العبرة في وضع هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها على أحسن نظام، وأدلّه على كمال قدرة خالقه وكمال علمه، وكمال حكمته وكمال لطفه... ففي هذا أعظم دلالة وأوضحها على أنّ العالم مخلوق لخالق حكيم قدير عليم، قدّره أحسن تقدير ونظّمه أحسن نظام، وأنّ الخالق له يستحيل أن يكون اثنين بل إله واحد لا إله إلا هو تعالى عمّا يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا، وأنّه لو كان في السموات والأرض إله غير الله لفسد أمرهما[1]" اقتبس ابن القيم قوله: "وأنّه لو كان في السموات والأرض إله غير الله لفسد أمرهما" من الآية الكريمة: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلا الله لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ الله ربِّ العَرْشِ العَظِيم**﴾ (الأنبياء: 22).

نموذج آخر: يقول ابن القيم: "... والطيرة سبب للمكروه على المتطير، فإذا توكل على الله، ووثق به واستعان به لم يصده التطير عن حاجته، وقال: اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك، اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يذهب بالسيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك[2]" وقريب من هذه العبارة قول الله سبحانه وتعالى: ﴿**الله لاَ إِلَه إلاّ هو الحَيُّ القَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْم لَهُ مَا فِي السَّمَوَات وَالأَرْض**﴾ (البقرة: 55).

وهكذا يقتبس ابن القيم من القرآن الكريم أساليبه العالية ويضمن تراكيبه فأضفى على لغته مسحة خاصة، وهذه توحي بمدى تأثر ابن القيم ببيان القرآن الكريم وتعلقه بأساليبه وإعجازه؛ حيث نجد في النص القرآني ألفاظا وتعبيرات معروفة مألوفة يستخدمها الأدباء البلغاء من البشر، لكنها تبقى جامدة، أما عندما تتناولها الريشة القرآنية المعجزة فإنّها سرعان ما تدبّ فيها الحياة الشاخصة والحركة المجددة ذات أرواح ومشاهد حية.

1- ابن قيم الجوزية، ج 2، ص 46.

2 - المرجع نفسه، ج 3، ص 386.

المبحث الرابع: الخصائص البلاغية:

* أسلوب الالتفات:

الالتفات: تعريفه: ورد في أساس البلاغة مادة (ل.ف.ت) "لفته عن رأيه: صرفه وفلان يلفت الكلام لفتا: يرسله على عواهنه لا يبالي كيف جاء[1]" والمعنى الاصطلاحي للالتفات: الانتقال من صيغة إلى أخرى، كالانتقال من خطاب حاضر إلى غائب، أو من مفرد إلى جمع أو من مثنى إلى عكس ذلك.

أنواعه:

1- **العدد:** يكون فيه الالتفات من الجمع إلى المفرد.

يقول الله تعالى:﴿ **لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّور**﴾ (إبراهيم: 01) فالظلمات جمع، والنور مفرد.

2- **الضمائر:** وهو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبار إلى المخاطبة وما شابه ذلك، ومن طرق الالتفات بالضمائر نجده:

- **في الانتقال من التكلم إلى الغيبة:** يقول تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ، فَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ**﴾ (إبراهيم: 04) فقد ورد في الآية انتقال من صيغة التكلم "أرسلنا" إلى الغائب "فيضل الله" ولقد تم العدول إلى صيغة المستقبل كذلك بعدما استعمل صيغة الماضي، والغرض من ذلك هو استحضار الصورة والدلالة على التجدد؛ إذ نجد البيان من الرسل عليهم السلام المتعاقبة عليهم.

- **في الانتقال من الخطاب إلى الغيبة:** في قوله تعالى: ﴿ **حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الفُلْك وَجَرَيْنَ بِهِم**﴾ (يونس:22) في قوله تعالى: ﴿**إِنْ يَشَأ يُذهِبْكُم وَيَأْتِ بِخَلْق جَدِي إبْرَاهيم وَمَا ذَلِكَ عَلَى الله بِعَزِيز**﴾ (إبراهيم: 19-20).

---

1 - الزمخشري، أساس البلاغة، تح عبد الرحمن محمود، د ط. لبنان: 1979، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، مادة لفت.

– في الانتقال من الغيبة إلى التكلم: كقوله تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الذِي أَسْرَى بِعَبدِهِ لَيْلا مِنَ المَسجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى، الذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيه مِنْ آيَاتِنَا**﴾ (الإسراء: 01) ثم التفت ثانيا إلى الغيبة، فقال: ﴿ **إِنَّهُ هوَ السَّمِيعُ البَصِير**﴾ (الإسراء: 01) ولقد تطرق العلماء القدامى إلى الالتفات أو أشاروا إليه وكل تناوله تحت المبحث الذي يراه، فمنهم من جعله تحت مبحث علم البيان، ومنهم من جعله تحت مبحث علم المعاني، وآخر جعله تحت مبحث علم البديع، وكذلك اختلفوا في تسميته.

ويعرف أبو هلال العسكري الالتفات بقوله: "الالتفات على ضربين، فواحد أن يفرغ المتكلم من المعنى، فإذا ظننت أنّه يريد أن يجاوزه يلتفت إليه، فيذكره بغير ما تقدم ذكره به ... والضرب الآخر أن يكون الشاعر (أو الكاتب) آخذا في معنى، وكأنه يعترضه شكّ أو ظن أن رادا يرد قوله أو سائلا يسأله عن سببه فيعود راجعا إلى ما قدمه، فإما أن يؤكده أو يذكر سببه أو يزيل الشك عنه..."[1] فالالتفات في رأي أبي هلال العسكري على ضربين، أحدهما أن يفرغ المتكلم من المعنى، الثاني أن يكون الشاعر (أو الكاتب) آخذا في معنى، وكأنه يعترضه شكّ أو ظن أنّ رادا يرد قوله أو سائلا يسأله عن سببه، فيعود راجعا إلى ما قدمه، إما أن يؤكده أو يذكر سببه أو يزيل الشك عنه، ويحدده ابن رشيق بقوله: "هو الاعتراض عند قوم، وسماه آخرون الاستدراك حكاه قدامة، وسبيله أن يكون الشاعر أخذ في معنى ثم يعرض له غيره فيعدل عن الأول إلى الثاني، فيأتي به، ثم يعود إلى الأول من غير أن يختل في شيء ممّا يشد الأول..."[2] ومعنى كلامه هذا أن للالتفات مترادفات أخرى، وهي: الاعتراض الاستدراك، وسبيله أن يكون الشاعر أخذ في معنى ثم يعرض له غيره، فيعدل عن الأول إلى الثاني، فيأتي به، ثم يعود إلى

---

1 – أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص 392.

2 – ابن رشيق القيرواني، العمدة، تح محمد بن عبد القادر أحمد عطا، د ط. بيروت، د س، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، ج 2، ص 45.

الأول من غير أن يختل في شيء ممّا يشد الأول، ومن أمثلة الالتفات في القــرآن الكريم قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿ **الحَمْدُ للهِ ربِّ العَالَمين إيَّاكَ نَعْبُــدُ وَإيَّــاكَ نَسْتَعين** ﴾ (الفاتحة: 1-2-3-4).

وقال الزمخشري في تفسير هذه السورة: " فإن قلت: لمَ عدل عن لفظ الغيبة إلى الخطاب؟ قلت: هذا يسمى الالتفات في علم البيان، قد يكون من الغيبــة إلــى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى المتكلم، كقوله ﴿ **حَتَّى إذَا كُنْــتُمْ فِي الفُلْك وَجَرَيْنَ بِهِم** ﴾ (يونس: 22) وقوله: ﴿ **وَاللهُ الذِي أَرْسَلَ الريَــاحَ فَتُثِيُــر سَحَابًا فَسقْنَاه** ﴾ (فاطر: 9)[1]" وهذا هو تفسير الزمخشري لهذه السورة.

والذي يميز أسلوب الالتفات عند ابن القيم، أنه كثيرا ما يكون آخذا في معنى ثم يلتفت إلى القارئ فجأة ليسأله أو يطلب منه شيئا أو يحذره؛ فينتقل بــذلك مــن الكلام عن الكون وخلق الإنسان والجبال والشــمس والقمــر ... فيخاطــب فجــأة القارئ، إما بإسداء النصائح أو ينهال عليه بسيل من الأسئلة، وأمثلة الالتفات فــي مفتاح دار السعادة كثيرة ومستفيضة، **يقول ابن القيم**: "أما نحن فلا يلزمنا شيء من هذه اللوازم من الطرفين فإنّا لم نسلك واحدا من الطريقين، فــلا ســبيل لإحــدى الطائفتين إلى إلزامنا بلازم واحد باطل ولله الحمد، فمن رام ذلك فليبده[2]" فالالتفات وارد في العبارة الأخيرة، وهي قوله "فمن رام ذلك فليبده" حيث تم الانتقــال مــن صيغة التكلم "نحن فلا يلزمنا و"فإنا لم نسلك" إلى الغائب "رام ذلك فليبده".

وشبيه هذا المثال: يقول ابن القيم: "وننبّه من مصالح النــار علــى خلــة صغيرة القدر، عظيمة النفع، وهي في هذا المصباح الذي يتخذه الناس؛ فيقضون به من حوائجهم ما شاؤوا من ليلهم، ولولا هذه الخلة لكان الناس نصــف أعمــارهم بمنزلة أصحاب القبور، فمن كان يستطيع كتابة أو خياطة أو صناعة أو تصرفا في

---

1 – الزمخشري، الكشاف، تح محمد عبد السلام شــاهين، ط 1. بيــروت: 1995، دار الكتــب العلمية للنشر والتوزيع، ج 1، ص 13-14.

2 – ابن القيم، مفتاح دار السعادة، ج 3، ص 15.

ظلمة الليل الداجي؟[1]" يظهر الالتفات في العبارة الأخيرة، وهي قوله "يستطيع" حيث تم الانتقال من صيغة التكلم "تنبه" إلى الغائب "يستطيع".

ومن أمثلة الالتفات أيضا في مفتاح دار السعادة قوله: " ... فأخبر أنّه يتعالى عن الأمر بالفحشاء، بل أوامره كلها حسنة في العقول، مقبولة في الفطر فإنّه أمر بالقسط لا بالجور، وبإقامة الوجوه له عند مساجده لا لغيره، وبدعوته وحده مخلصين له الدين لا بالشرك، فهذا هو الذي يأمر به تعالى لا بالفحشاء، أفلا تراه كيف يخبر بحسن ما يأمر به ويحسّه[2] " فالالتفات وارد في العبارة الأخيرة وهي قوله "أفلا تراه" حيث تم الانتقال من صيغة الغائب "أمر" إلى المخاطب" أفلا تراه" والملاحظة الثانية هي تحويل في زمن الفعل؛ أي من الزمن الماضي" أمر" إلى المضارع "تراه".

ومثال آخر: يقول ابن القيم: "... فنزّه نفسه سبحانه وباعدها عن هذا الحسبان، وأنه يتعالى عنه ولا يليق به لقبحه، ولمنافاته لحكمته وملكه وإلهيته، أفلا ترى كيف ظهر في العقل الشهادة بدينه وشرعه وبثوابه وعقابه ... فقد تطابقت شهادة العقل والوحي على توحيده وشرعه، والتصديق بوعده ووعيده[3]" فالالتفات وارد في العبارة، وهي قوله "أفلا ترى" حيث تم الانتقال من الغيبة "نزه" إلى الخطاب "أفلا ترى" ثم التفت ثانية إلى الغيبة فقال "تطابقت".

إنّ القارئ لمفتاح دار السعادة يلاحظ أن ابن القيم يكثر من الالتفات في نصوصه ولعل السبب في ذلك هو التفنن والانتقال من أسلوب إلى آخر، لما في ذلك من تنشيط السامع واستجلاب صفائه، واتساع مجاري الكلام، وتسهيل الوزن والقافية لأنّ الكلام إذا جاء على أسلوب واحد وطال حسن تغيير الطريقة.

---

1 – ابن القيم، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 76.

2 – المرجع نفسه، ص 335.

3 – المرجع نفسه، ص 340.

خـــاتمـــة: وبعد هذا الجهد المضني الذي بذلته في خضم هذا البحث، فإني توصّلت إلى نتائج من أهمها ما يلي:

1- إنّ الإمام ابن القيم – رحمه الله نشأ في أسرة ذات علم وفضل، وكانت السبب الرئيسي في تكوين شخصيته العلمية.

2- بدأ يشتغل بالعلم، ويكب على تحصيله في السن السابعة.

3- أما من خلال دراستي لكتاب "**مفتاح دار السعادة**" فقد سجلت النقـــاط التالية:

أ – إنّ موضوع الكتاب يدور حول العلم والإرادة.

ب – إنّ منهج ابن القيم فيه متميز، وقد كشفت عن جوانب مهمة من نصـــه ومميزاته.

ج – إنّ كتاب مفتاح دار السعادة يعتبر مرجعا أساسيا في علم أصول الفقه.

أما عن خصائص لغة ابن القيم في مفتاح دار السعادة، وهي لب دراســـتنا، فقد سجلت النقاط التالية:

<u>أولا: الخصائص الأسلوبية:</u> يتميز أسلوب ابن القيم في مفتاح دار الســـعادة بما يلي:

– **الاستطراد:** وهي خاصية عرف بها ابن القيم واشتهرت في أبحاثه، فكان إذا بحث مسألة استرسل في الكلام واستطرد فيها، حتى يخـــرج عـــن موضـــوعه الأصلي إلى موضوع آخر، قد يكون أنفع للناس من المسألة المبحوثة فيها أصـــلا وهذا مماّ يدل على غزارة فكره، وعلى جوده بعلمه.

– **أسلوب الحوار:** استخدم ابن القيم أسلوب الحوار فـــي غالـــب مناقشـــته لخصومه حتى يعطي حيوية أكثر للموضوع، ويجعـــل القـــارئ يتابعـــه باهتمـــام وتركيز، ويشعر وكأنّه حضر مجلس مناظرة، وقد تقابل الخصمان؛ فـــأدلى كـــل منهما بحجته، وهذه خاصية بارزة في مواضع كثيرة في مفتاح دار السعادة.

- **الأسلوب الأدبي:** لجأ ابن القيم في كتابه إلى الأسلوب الأدبي، ففيه السجع وسائر المحسنات، لكن ذلك بقدر، كما أنّه لا يكون منه في كلّ حال، وإنّما في مقام مخصوص، وهو بصورة واضحة لا يلجأ إلى الأسلوب الحافل بالمحسنات إلا في مقدمة كتابه، أو مقدمات بعض أبحاثه.

- **الأسلوب العلمي:** ويظهر في مقام مخصوص في مقدمة كتابه، أو مقدمات بعض أبحاثه.

- **السجع:** إنّ السجع خاصية من خصائص أسلوب ابن القيم، وتبدو عباراته جزلة قوية تمتاز بالوضوح والبعد عن الغرابة، ويتميز بطول النفس والمقدرة الفائقة في الإقناع، وذلك بأسلوب مشوق وجذاب حافل بالسجع.

- **المعرفة اللغوية:** كان ابن القيم يتمتّع بمعرفة لغوية لا تضاهى؛ حيث يبدو في أسلوبه أثر ثقافته الواسعة، وعلى الرغم من أنّه فقيه وأصولي، إلا أنّه على دراية حتى بأبسط الأمور؛ فلقد كان إذا عرضت له مسألة لغوية لم يتركها حتى يقتلها بحثا.

- **المعرفة النحوية:** كان ابن القيم يتمتع بمعرفة نحوية، فهو عالم موسوعي لما حباّه الله من قوة البصيرة ونفاذ الذهن؛ حيث كان إذا عرض لمسألة متصلة بالقواعد النحوية، صال فيها وجال، كأنه عالم متخصص مع حسن توجيه.

- **الاقتباس من الشعر:** كان ابن القيم يحفظ الكثير من الشعر، واستطاع أن يستحضر ما يتناسب مع الموضوع الذي يتكلم فيه، حتى يقع استشهاده في موضعه ووضعه في مناسبات من عباراته توافقه وتليق به، ولكنه شعرا علميا لا أدبيا، ويقع في موضعه.

ثانيا: الخصائص اللغوية: ومن خصائص لغة ابن القيم من خلال مفتاح دار السعادة ما يلي:

أولا: النظام الصوتي والدلالي: وقد سجلت في هذا الجانب النقاط التالية:

- اتسمت الأبنية في مستواها الإفرادي، وفي مستواها التركيبي بحسن التأليف والانسجام بين الحروف والأصوات، وبين المفردات والتراكيب التي ترتبط بها.

فمن حيث المستوى الإفرادي، جاءت الكلمات حسنة التأليف؛ لأنها امتزجت فيها الحروف المتباعدة التي تكون الجهاز الصوتي، وقد قسمناه إلى ثلاثة أقسام:

1- القسم الأعلى: والذي يضم حروف الحلق واللهاة.

2 - القسم الأوسط: ويضم الحروف الطبقية والحروف الغارية والحروف اللثوية.

3- القسم الأدنى: ويضم بقية المخارج.

- اتسمت الكلمات في مستواها الإفرادي بحسن التأليف؛ لأنّ أصواتها جمعت بين الشدة والرخاوة والقوة والضعف أو اللين تبعا لمدلول الكلمة..

- إنّ مصدر الإثارة والتأثير في الكلمات في مفتاح دار السعادة نابع من أمرين اثنين:

أ - إيحاءاتها الدلالية.

ب- إيحاءاتها الصوتية، وطبيعة الحروف المكونة لهذه الكلمات.

- اختيار ابن القيم للفواصل المتناسقة، والأوزان المتجانسة بين التراكيب؛ إذ تمتاز نصوصه بالتماثل بين تركيبين متتاليين أو أكثر من حيث طول النفس أو قصره، وهو ما يسمى عند علماء البلاغة بأسلوب السجع والازدواج.

ثانيا: النظام الصرفي: يلاحظ في هذا الفصل بجلاء أنّ ابن القيم كثير العناية بتوظيف كلمات القرآن الكريم في نصوصه، وتطعيم لغته بألفاظه، وتوظيف كلمات القرآن الكريم ظاهرة بارزة يدركها بسهولة كل متصفح لكتاب مفتاح دار السعادة ويدركها بسهولة كل من كانت له دراسة في القرآن الكريم، أو كان يستظهره...

- لم يقتصر ورود هذه الألفاظ في نصوص معينة كالنصوص الدينية فحسب، بل إنها موظفة في كل المواضيع: الوصف...

- **الترادف:** ومن الظواهر التي سجّلناها أيضا في البحث هي ظاهرة الترادف؛ حيث يورد ابن القيم العديد من المترادفات للمسمى الواحد رغبة منه في:

- إظهار براعته اللغوية، وتمكنه من أسباب البيان اللغوي...
- مراعاة السجع للتوسع في الكلام، وتلافي تكرار نفس اللفظ في الفقرة الواحدة.

- **الاشتقاق:** وهي ظاهرة أخرى من الظواهر الصرفية البارزة في مفتاح دار السعادة وقد سجلنا خاصتين من خصائص الاشتقاق في مفتاح دار السعادة:

- اشتقاق مصادر وأفعال من جواهر الألفاظ.
- اشتقاق الصيغ الدقيقة للمعاني الدقيقة.

ثالثا: نظام التراكيب: ما يسجل على هذا الجانب:

- **التقديم والتأخير:** فعناصر الإسناد قد يتقدم بعضها على بعض، فتارة يقدم ابن القيم المسند كركن أول، وتارة يقدم المسند إليه، وتارة أخرى يقدم المتمم (مم) ولكن ابن القيم في جميع هذه الحالات يقتضي في نظمها آثار المعاني، ويرتبها في كلامه على حسب ترتب المعاني في النفس، وتتبين قدرته في البلاغة والبيان، حين يستخدم هذه الغاية المعنوية للتقديم والتأخير في تحقيق هدف آخر، وهو روعة موسيقى العبارة واكتمال جمالها الفني، ومراعاة التناسق بين العبارات جميعا.

- **الذكر والحذف:** فقد يحذف ابن القيم المبتدأ ويذكر الخبر، وقد يذكر المبتدأ (م إ) ويستغني عن ذكر الخبر (م) وقد يتناول الحذف المتمم (مم).

وفي أحيان أخرى يحذف ابن القيم (م) و(م إ) حينما يدل عليهما دليل أو قرينة من القرائن، وعلى قدر معرفة ابن القيم للأماكن التي يحسن فيها الذكر أو الحذف، تبين مكانته في الفصاحة، وامتلاك ناصية البيان.

- **الاستثناء والقصر:** ظاهرة أخرى جلية في مفتاح دار السعادة؛ إذ كثيرا ما يستهل معنى بأسلوب الاستثناء، ويعدل عن الأسلوب التقريري المباشر؛ أو العكس؛ لأن الاستثناء يخدم المعنى من وجهين:

أ- أن يأتي معنى يريد توكيده والزيادة فيه فيستثنى بغيره، فتكون الزيادة التي قصدها.

ب- استقصاء المعنى والتحرز من دخول النقص فيه.

- **مشاكلة الأساليب القرآنية وتضمين تراكيبه:** وهي من الظواهر الأخرى التي يمكن أن نسجلها في مفتاح دار السعادة في مواضع كثيرة؛ حيث يقتبس ابن القيم من القرآن الكريم أساليبه العالية ويضمن تراكيبه؛ فأضفى على لغته مسحة خاصة، وهذه توحي بمدى تأثر ابن القيم ببيان القرآن الكريم، وتعلقه بأساليبه وإعجازه.

رابعا: الخصائص البلاغية: وقد سجلنا في هذا الجانب ظاهرة، وهي:

أسلوب الالتفات: إنّ القارئ لمفتاح دار السعادة يلاحظ أنّ ابن القيم يكثر من الالتفات في نصوصه، ولعل السبب في ذلك التفنن والانتقال من أسلوب إلى آخر لما في ذلك من تنشيط السامع واستجلاب صفائه، واتساع مجاري الكلام، وتسهيل الوزن والقافية لأنّ الكلام إذا جاء على أسلوب واحد وطال، حسن تغيير الطريقة.

اقتراحات: وفي الختام، أوجّه إلى طلبة هذا الشأن الاقتراحات التالية:

-متابعة الموضوع، وذلك باستخراج الكنوز العلميّة من بقية مؤلفات ابن القيم رحمه الله.

- اختيار هذا اللّون من الدراسة في البحث، وذلك باستقراء القواعد الفقهية والمسائل العلميّة من أمّات الكتب عامة، ومن مؤلفات ابن القيم خاصة.

- إثراء هذا الفنّ، بإخراج مخطوطات ابن القيم من غياهب الخزانات إلى نور المطبوعات، وتحقيقها تحقيقا علميا دقيقا، حتىّ يعمّ النّفع، وتنشر الفائدة.

وفي الختام:

لا يسعني في هذا المقام إلاّ التضرّع إلى الله عزّ وجلّ شاكرين له على ما منّ علينا من صواب وتوفيق، مستغفرينه على ما وقع لنا من زلة وخطأ بسبب عجزنا وتقصيرنا، وضعف قوّتنا، وقلّة بضاعتنا.

المصادر والمراجع:

1- القرآن الكريم.

2- المعاجم:

1- ابن منظور، لسان العرب، ط 1. بيروت، د س، دار صادر للنشر والتوزيع.

2- إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح في اللغة، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، د ط. بيروت، د س، دار العلم للملايين للنشر والتوزيع.

3- المعجم الوسيط، تحقيق مجمع اللغة العربية، ط 3. القاهرة: 1985.

4- الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق عبد الرحمن محمود، د ط. لبنان: 1979 دار المعرفة للنشر والتوزيع.

5 - ياقوت الحموي، معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، ط 3. بيروت د س، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع.

3- المصادر والمراجع:

1- ابن جني، الخصائص، تح محمد علي النجار، د ط. بيروت: 1957، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، ج 1.

2- ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، د ط. بيروت: 1993، دار الجيل للنشر والتوزيع، ج 4.

3- ابن رشيق القيرواني، العمدة، تحقيق محمد بن عبد القادر أحمد عطا، د ط. بيروت، د س

دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، ج 2.

4- ابن عصفور، الممتع في التصريف، ط4. بيروت: 1979، دار الآفاق الجديدة للنشر والتوزيع، ج 1.

5- ابن قيم الجوزية، التفسير القيم، تحقيق محمد حامد الفقي، د ط. بيروت: 1988 دار الفكر للنشر والتوزيع.

ـــــــــــــــــــ زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق الشيخ حسن محمد المسعودي د ط. بيروت، د س، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع، ج 1.

ـــــــــــــــــــ مفتاح دار السعادة، تحقيق علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي الأثري، ط 1. القاهرة: 2004، دار ابن القيم للنشر والتوزيع.

ـــــــــــــــــــ الفوائد، د ط. بيروت، د س، المكتبة الثقافية.

9- ابن هشام، أوضح المسالك، ط 5. بيروت، د س، دار الجيل للنشر والتوزيع.

ـــــــــــــــــــ شرح شذور الذهب، د ط. بيروت، د س، دار الجيل للنشر والتوزيع.

11- أبو الفلاح عبد الحي بن عماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب د ط. بيروت، د س، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ج 6.

12- أبو عبد الرحمن عبد المجيد جمعة الجزائري، القواعد الفقهية المستخرجة من كتاب إعلام ابن قيم الجوزية، ط 1. بيروت، د س، المكتبة الثقافية.

13- أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، د ط. بيروت: 1986، المكتبة العصرية.

ـــــــــــــــــــ الفروق اللغوية، د ط. بيروت: 1991، دار الآفاق الجديدة للنشر والتوزيع.

15- أحمد العمري، بلاغة الحوار، د ط. المملكة المغربية: 2005، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ص 55.

16- إسماعيل ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، تحقيق مكتب تحقيق التراث، د ط. بيروت، د س، دار إحياء التراث العربي للنشر والتوزيع.

17- الحافظ زين الدين أبو الفرج ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، د ط. القاهرة: 1952، الدار المحمدية للنشر والتوزيع، ج2.

18- الزمخشري، الكشاف، تحقيق محمد عبد السلام شاهين، ط1. بيروت: 1995 دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع.

19- السكاكي، مفتاح العلوم، ط1. بيروت: 1983، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع.
20- الشوكاني محمد بن علي، البدر الطالع، ط1. القاهرة، د س، مطبعة السعادة.
21- بكر بن عبد الله أبو زيد، ابن القيم حياته وآثاره، ط1. المملكة العربية السعودية، د س، دار العاصمة للنشر والتوزيع.
22- تمام حسّان، اللغة العربية معناها ومبناها، د ط. المغرب: 2001، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ص 79.
ـــــــــــ مناهج البحث في اللغة، د ط. المغرب: 1986، دار الثقافة للنشر والتوزيع.
24- جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، د ط. بيروت، د س، المكتبة العصرية، ج 1.
ـــــــــــ المزهر، ط 3. القاهرة، د س، دار التراث للنشر والتوزيع.
26- حاجي خليفة، كشف الظنون، د ط. بيروت، د س، دار إحياء التراث العربي للنشر والتوزيع، مجل 2.
27- سيبويه، الكتاب، تحقيق محمد هارون، ط 4. بيروت: 1988، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع.
28- صالح بلعيد، اللغة العربية العلمية، د ط. الجزائر: 2003، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، ص 38.
29- صبحي صالح، دراسات في فقه اللغة، ط 12. بيروت: 1989، دار العلم للملايين للنشر والتوزيع.
30- طاهر سليمان حمودة، ابن قيم الجوزية جهوده في الدرس اللغوي، د ط. القاهرة د س، دار الجامعات المصرية للنشر والتوزيع.
ـــــــــــ ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، د ط. الإسكندرية: 1999، الدار الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع.

32- عباس حسن، النحو الوافي، ط 9. القاهرة، د س، دار المعارف للنشر والتوزيع ج.2

33- عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، تحقيق حامد أحمد الطاهر، ط1. بيروت: 2004، دار الفجر للتراث للنشر والتوزيع.

34- عبد العظيم عبد السلام شرف الدين، ابن قيم الجوزية، عصره منهجه وآراؤه في الفقه والعقائد والتصوف، ط 3. الكويت: 1984، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع.

35- عبد الفتاح لاشين، ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن، ط1. بيروت د س، دار الرائد العربي للنشر والتوزيع.

ــــــــــــ صفاء الكلمة، د ط. الرياض: 1983، دار المريخ للنشر والتوزيع.

37- عبد القادر عبد الجليل، الأسلوبية، ط 1. عمان: 2002، دار صفاء للنشر والتوزيع.

38- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ط 8. القاهرة: 1989، مكتبة الخانجي.

39- عبد المتعالي الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، ط 1. القاهرة: 1999، مكتبة الآداب للنشر والتوزيع، ج .4

40- فارس محمد عيسى، علم الصرف منهج في التعليم الذاتي، ط 1. عمان: 2000 دار الفكر للنشر والتوزيع.

41- محمد حسين آل ياسين، الدراسات اللغوية عند العرب، ط1. بيروت: 1980 دار مكتبة الحياة للنشر والتوزيع.

42- مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، د ط. بيروت: 1974، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع.

الفهرس